الباب الثاني

في بتربورغ

الباب الثاني

[٣٢/ظ] في بتربورغ

في بـتر بورغ وبيان وضعها وعرضها وطولها وطبيعة أرضها ومائها وقطرها وتحلل المياه وتجلدها، وقـوة البرد فيها حتى يمكن أن تنحت أحجار من الجليد ويبني بها وتمر العربيات فوق الأنهار المتجلدة، وفيضان المياه فيها، وبيان منشأ بـتر بورغ وتأسيسـها، وتقـدم البناء فيها، وكثرة الأشـغال، وزيادة سـكنى الغربـاء فيهـا، والأهالـي وصيرورتهـا تخـت الروسـيا، وتوسـيع طرقها، وحسـن إحكامها وتنظيمها وترقيها يومًا فيومًا إلى وقتنا هذا وفيه فصول.

الفصل الأول

اعلم أن بتربورغ مركبة من كلمتين بتر يعني بطرس بانيها، وبورغ يعني بلـد أو حصن يعني بلد أو حصن بطرس، والعامة تقول بتر وهي قصبة مملكة الروسـيا المؤسسـة في سـنة ١٧٠٣، تشـغل جزءًا من إينغري القديمـة، وجزءًا من كاريلـي القديمة، يعـني الفينلاد، موضوعـة في ٥٦٥٩، ٣١درجة من العرض الشـمالي، وفي ٣٠،٥٩ مـن الطـول من دائرة نصـف النهار المأخـوذة من الجزائر الخالدات في سـهل متسـع إلى فم النيڤا في خور فينلاند، وتمتد على السـاحلين، وتشـغل عدة جزائـر في ذلك النهر العظيم في قبلي المدينـة الغربي، وفي غربي المدينة الخور وسواحله، ومن الجوانب الأخر سهل متسع فيه قرى مخضرة مرتفعة تذهب بمسـافة من المدينة إلى [٣٣/و] ناحية الشرق، في قبلي جبال دوديروف التي سطحها يصور بثلاثين فرست من المدينة سطحًا مستديرًا باعوجاج مجرى النيڤا.

وبعـد ٤٤ سـنة مـن الملاحظـات المتعلقـة بحوادث الجـو، علم أن بـتر بورغ ترتفـع على سـطح بحـر بلطيـق بـ ٨٥٤١ أو ٥٩٦٢٩ قدمًا إنكليزيًـا، والأرض كثـيرة الجزائر، وهـي عمومًا دسمة ومهتزة، وتحت سـطحها السـبخي يوجد

راق غليظ من تراب الفخار في بعض المواضع، وفي بعضها من التراب الصالح للوقود، وفي الأعلى رمل، وفي النادر حجارة، وهذا الحساب كان أول مرة سنة ١٨٢٧، وحاسبه القولونيل ترليتسكي، حسب أيضا أن موسقو تحت جدران كريملان ترتفع بـ ٦٢١٨٤ على علو النيفا العادي، تحت قصر الشتاء، ومع أن الله تعالى أحاط بتر بورغ بالمياه الغزيرة ما حلى نواحيها بما هو زينة الأنهار، فالنبات فيها عمومًا ضعيف، وذابل، ومن المنتقعات تنبت أشجار قصيرة متفرقة مثلًا، هنا محل مملوء بشجر الصفصاف وبعيدًا آخر مملوء بالصنوبر أو بالقان، وهناك حور مخزن أو اسفندان بورق لطيف مرتفع على أرض رطبة أو مرملة بظل قليل ضعيف، حيث خشونة الأرض الطبيعية لم تغلبها قوى الصناعة، لكن أكثر هذه المنتقعات قد طم باجتهادات الإنسان السعيدة، وانقلبت الآن إلى مروج بهية وبساتين مملوءة بالأزهار، واليوم في الأراضي المخدومة حول المدينة تبسق في كل [٣٣/ظ] موضع الأشجار اللطيفة وتبدو الخضرة الريانة المتكاتفة والخضارات ينجح نباتاتها للغاية في حوالي بتر بورغ.

وفي سنة ١٧٧٣ اعتبر الخواجة موديل الكيماوي المشهور ماء النيفا فنتج من ملاحظاته، والملاحظات التي كانت قبل إنه يشتمل على جملة كثيرة من الحمض الفحمي بلا أدنى خلط معدني إلا بملح عادي قليل جدًا، بحيث لا يحس به، وأيضًا ماء النيفا معروف بأنه من أصفى المياه وأنفعها لاستعمال الناس، وإن كان ماء الأنهار الصغيرة وخلجان المدينة بسبب البالوعات التي تلقي فيها وعبور السفن الكثيرة التي تأتي لتموين المدينة غالبًا مكدرًا ومحتويًا خصوصًا في الصيف على بعض مواد مضرة بالصحة، ففي مقابلة ذلك ماء النيڤا في كل فصل شراب زلال للسكان، عذب بارد شفاف، إلا أنه للغرباء مسهل أول الأمر، كما قلت في المفاخرة بينه وبين النيل مشيرًا لذلك:

من قاس بالنيل نهر نيڤا ... ولم يذق حلوه وعذبه
عندي عليه دليل ذوق ... هذا شراب وذاك شَرْبه

وقد اعتنت المملكة في كشف الوسائط الدافعة للضرر الناشئ من الخلجان، ومحيط دائرة المدينة الآن ٣٥ ڤرست، وسطحها نحو ١٨٠٠٠٠٠٠ سچين

مربعة، وطولها ٦ فرسـت من ركن حارة نارڤا حيث تصب فونتانكه في النيفا إلى دير سمولني، وعرضها ٨ فرسـت من الحاجز الموسقوي إلى ساحل [٣٤/و] النيڤا الأيمـن أمـام جزيـرة أپوتيكير أو جنينـة البوتانيك الصيدلانيـة، ونصف المدينة تقريبـا محـدق بالنيڤا وخلجانـه الأصلية، وربعها محـدق بمياه الخـور، والباقي يطل على القرى، والمدينة مكشـوفة بحيث من كل طرف ولها وسائط قليلة لتلطيف صعوبة هوائها الطبيعي لوضعها الشمالي، وفي قطرها الصعب يحدث في الهواء تغييرات متواترة شـديدة، لكن أصل الهواء صافي والرياح مع شـدتها تهب دائمًا، وخصوصًا من الشرق تبرد حارات بتربورغ العريضة وتفرق بخار البحر والأدخنة المضرة المتولدة من المنتقعات المحيطة بالمدينة، والطقس المتوسط نحو ٣،٠٩، والريـح الغربي هو الغالب، والريح القبلي الغربي بسـبب الغيوم والريح الشـمالي الغربي مصحوب في الصيف بالصحو، وفي الشـتاء بالنشـوفة والبرد، الطقس المتوسـط لوحظ في سـنة ١٨٣١، ٢٩٦ وأيام الغليني نادرة جدًا، عدت في سـنة ١٨٣٠، ٤٩، وفي سـنة ١٨٣١، ١٠٩، والرياح العاصفة لوحظت في سـنة ١٨٣٠، ٦مـرات هبـت على ٦ مرات من قبلي و(١) من قبلي غربي و(١) مرة قبلي شـرقي و (١) مرة من الشمال الشرقي، وفي سنة ١٨٣١ كانت الرياح العاصفة ١٥ مرة، (٦) من قبلي غربي، و (٢) من قبلي و (٥) شمالي الشرقي و(٢) غربي.

والعادة أن النيڤا يتجلد في تشـرين الثاني، ومن سـنة ١٧١٨ في مدة ١١٤ سنة مـا حصـل إلا ١٤ مـرة، إنه تجلـد ٣٠ أو ٣١ تشـرين الأول ومرة في سـنة ١٨١١، ١٦ تشـرين الأول، وفي هـذه المـدة [٣٤/ظ] بعينها مـا تأخر تحلل الجليـد إلا ٦ مرات، ووقـت تعويقـه في التجلـد كان ليلـة ١٣ إلى ١٤ كانـون الأول سـنة ١٨٢٦، ويمكن أن يلاحظ أن النصف الأول من نيسـان وقـت عادي للتحلل، وفي مدة ١١٤ سـنة المذكـورة لم يتحلـل النيڤا أبدر منها مـن ٢٠ آذار إلى ٣١ منه إلا ١٦ مرة، والتحلل الأعوق كان في سـنة ١٨١٠م، ٣٠ نيسان، والأبدر كان في سنة ١٨٢٢، ٦ آذار، والعامـة الذيـن أمثالهـم في الغالب من قبيل المكاشـفات خصوصًا فيما يتعلق بقطرهم يحـددون تاريخ تجلد النيڤا، وتحلله بهذا المثل المضاعف « ليوم مـار نقولـه الماء يحبـس»، «وليوم مارجـورج القنطرة ترتفع»، وذلـك أن يوم مار نقوله صاحب الكرامات، ٦ كانون الأول، ويوم مار جورج ٢٣ نيسان.

وعلى ما قلنا يعرف القارئ إن في ٦ كانون الأول على الحقيقة الصرّ يحبس المياه ويغطيها بالجليد، وفي ٢٣ نيسان عند التحلل ترفع القناطر التي هي من السفن الجامعة لساحلي النهر، فانظر لطول مدة البرد في هذه البلاد، وقصر مدة الربيع والصيف، فهل كان هنا أبو منصور قسم بن إبراهيم[1]، الملقب ببزرجمهرمن شعر اليتيمة، حيث قال في استطالة الشتاء واستبطاء الربيع، ما تفرد بمعناه، وأحسن كل الإحسان في التشبيه البديع.

لقد حال دون الورد برد مطاول ... كأن سُعودًا غُيبت في مناحس
وحجب في الثلج الربيع وحسنه ... كما اكتَنَ في بيض فراخ الطواوس

وعند تحلل النيفا، سكان السَّاحلين المتقابلين المغترقين غالبًا عدة أيام بسبب صعوبة الممر يتكاثرون بغاية الغية والقلق على ساحل النهر كي ينظروا البعث الذي بواسطته يؤذن بالعبور.

قلت في سنة ١٨٤١م عوق جدًا إلى ٨ كانون الأول وكدر الناس ورفعت القناطر مرات حتى كان هذا سببًا لفائدة عظيمة، وهي أن أبهة القيصر أمر ببناء قنطرة مثبتة على كل حال، وقد شرع فيها من مدة سنين، وهي الآن على طرف التمام، حتى إنه مر عليها بعض الناس في هذه السنة في وقت هيجان النيفا للتجلد، وفي السَّنة الآتية تسلم للعبور لجميع الناس بعد أن يعبر عليها القيصر أول مرة. وفي وقت اضطراب النيفا بالجليد تأتي الناس أفواجًا على الساحلين للنظر وقلت:

على ظاهر النيفا جليد تراكمت ... جنادله ما بين مُرْغٍ ومزيد
فها هو يبكي رعدة وترى الورى ... يقولون لا تهلك أسىً وتجلَّد

[٣٥/و] وفي سنة ١٨٤٤ تحلل النيفا بسهولة عظيمة، ففي ليلة ١٣ لنيسان ابتدأ، وفي صبحه عبروا.

(١) هو: أبو منصور قسيم بن إبراهيم القائني، وللأبيات الشعرية انظر: الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج ٤، ق٢، ص ٢٣١.

ولَما رتب بطرس الأول منجرة المدينة نسب لها في سنة ١٧٣٠ النظارة على كل أبنية بتربورغ المخصوصة، ونتج من هذا أن سلوك النيڤا بعد التحلل يتوقف على إذن رئيس المنجرة، وكان التكلف الذي يفعل لهذا سابقًا غير ما أمر به ٧ أيلول سنة ١٨٣٢، ورئيس منجرة المدينة بإشارة لائقة من ساحل الترسانة يذهب من أمام بيت القيصر بطرس الكبير في زورق بمدفع صغير وفيه بُندِيرة المنجرة المذكورة إلى قلعة مار بطرس ومار بولص، وهذا الزورق يصحبه زوارق الناس الذين يريدون يحضرون التكلف، وفي ذلك الوقت بعينه يخرج من الترسانة نحو القلعة مدير أبنية وزارة البحر، وإذا كان مريضًا أو غائبًا، فناظر الأشغال المذكورة ينوبه في زورق بمدفع وبندِيرة، وعند وصول كل أمام القلعة يسلم بطلق ٧ مدافع، والقلعة ترد سلام المدير أو نائبه بعدد مساو، وسلام رئيس المنجرة بخمسة فقط، وبعد السلام وردّه، يذهب حاكم القلعة منها ببندِيرة لائقة بمقامه، ورئيس المنجرة والمدير أو نائبه يذهبان لملاقاة حاكم القلعة، ويخبرونه بإمكان العبور على النيڤا من الطرفين، فحينئذ تذهب كل هذه الزوارق إلى مرسى القصر، يتقدم أولًا زورق رئيس المنجرة ويتبعه زورق المدير، ويتبعه زورق حاكم القلعة، مقدم كل الثلاثة قبل المؤخر، [٣٥/ظ] وإن كان الزروق القيصري وزورق رئيس الدننما وزورق وزير البحر في الترسانة، ذهبت لملاقاة حاكم القلعة، وتبعت زورقه، وإذا قرب حاكم القلعة من القصر سلم بطلق ٧ مدافع.

ثم يصعد حاكم القلعة والمدير والرئيس إلى القصر ويخبرون أبهة القيصر الأول بالدعاوى التي يرجع فيها إليه والأخيران بإمكان العبور على النيڤا من الطرفين، وعند صعود حاكم القلعة مع تبعه إلى القصر بندِيرات الزوارق تجذب أيضًا، وحينئذ زوارق الناس التي صحبت الموكب تذهب إلى مراسيها الصيفية، وحكم جواز النهر من ذلك الوقت الجواز والألوف من الناس التي تغطي ساحلي النيڤا المتخلص من غطائه البارد وطلق المدافع، وشوبشة النواتية التي تنزل في النهر والزوارق التي لا تعد ولا تحصى التي تمخر في النهر من كل طرف، كل هذا يظهر صورة موافقة لزمان بطرس الأول، الأب الشفوق على بلده الجديدة وعياله العديدة.

وأما في هذا الوقت فيذهب حاكم القلعة وحده في زورق، ويأخذ معه حفَه مملوءة من ماء النيڤا إشارة إلى جواز الجواز، وحينئذ يملؤها القيصر مجرات، وتطلق المدافع ويبتدئ العبور، وأما تجلد النيفا فليس له رسم الآن، لكن في أيام بطرس الكبير كان المرور على الجليد متوقفًا على مررو واحد مسخرة من القصر يمر أولًا على الجليد، وعليه بدلة مسخرة وخلفه بعض أشخاص بعضهم يحمل راية من القماش، والأخر بأيديهم قوس وحبال [٣٦/و] وقواديم والشاطئ الذي ترسي عليه السفن المزين الآن بحجر الصوان المحكم جدًا بحيث يظهر أنه مسبوك عليه في قالب خارج عن القياس ابتدى تثبيته في حياة بطرس في بعض مواضع بأوتاد وأخشاب وموضع المرسى العجيبة المزين بالأواني الكبيرة.

كان إذ ذاك مرسى من الخشب عادية خشنية، وبعد السطر الأول من البيوت كانت العين تفضى بالحزن عن المنتقعات الواسعة، والآن تقر برؤية آثار الصنائع العجيبة والعمارات التي تنافس العمارات القديمة، ثم إن ربيع بتر بورغ المبتدأ على حساب السنة الشمسية من ٨ آذار لا يكون حقيقة إلا في آخر نيسان، وحتى تارة في أواخر آيار وزئبق ميزان الهواء يقف تحت درجة الجليد، ومع أن حر الشمس أذهب الزحلقة في سنة ١٨٢٦، حصل في بتر بورغ أمر نادر جدًا، وذلك أن عربات الزحلقة ابتدأت بالسهولة في يوم الأحد عيد الفصح؛ لأن في أمس ذلك العيد ٢٤ آذار وقع ثلج كثير وغطى وحل الحارات، وطم حفر الماء الصغيرة، وكان الصرَست درجات، لكن ما دام ذلك زمانًا طويلاً، وعلى كل حال فالربيع لا يتخلف عن تحلل النيڤا، وتحلل جليد بركة لادوغة بعده بنحو أسبوع، فأول فصل الربيع منوط بتحلل الجليد، وإذا تأخر التحلل فمرور الربيع إلى الصيف سريع جدًا حتى أنه في ليلة تنمو النباتات.

وحينئذ الأشجار تبدو في الاخضرار، وبعد يومين أو ثلاثة تزهو بالكلية، وحر صيف بتر بورغ لا يزيد عن حرور [٣٦/ظ] الصيف الجنوبي، لكن يدوم قليلاً، والهواء في هذا الفصل عرضة لكثير من التقلبات، وأعلى ما يكون الحر ٢٤ درجة، في ميزان الهواء في بتر بورغ، ومع ذلك ٢ تموز سنة ١٨٠٢ ، كان الحر في الظهر ٢٦ درجة، ٦، وفي ٢٥ تموز سنة ١٨١٢ كان ٢٧ درجة ٢، والزوابع والصواعق عمومًا لا تمتد ولا تقوى والغيوم تتفرق بالسرعة، ونادرًا فوق المدينة

وأندر من ذلك تسبب الضرر عنها، وليالي بتر بورغ في الصيف لطيفة جدًا، فهي لا ليل ولا نهار إنما الدغيشة أو تباشير الصباح كأنها مركبة من ظل ونور، وقلت في ذلك:

في بتر بـــورغ بدائع	وعجـــائب وغرائب
فالصبح فجر صـــادق	والليـــل فجر كاذب
فكأنهـــا لضيائها	الليـــل منها هـــارب

والريـاح في هـذا الفصل في العادة سـاكنة، والهواء صافٍ خفيف شـفاف حتى تمكن القراءة في كل سـاعات الليل، ففي الحقيقة بمجرد ما يسـطع شـفق المساء في الأفق يرى في شرق القطب تباشير الصباح ناشرة راياتها الحمر، وأطول يوم في بتر بورغ ١٨ ساعة و٢٩ دقيقة، يبقى ٥ ساعات و٣١ دقيقة مسافة الليـل بلا ظلمـة الذي نعتناه آنفًا، فإذا وقع الصوم في هذه الأيام كان عسـرًا، ومـع هذا فالمسـلمون يصومونه، وانظر لقـول أبي الغنائم الرملـي، مع أنه لم ير مثل هذا الطول[1]: [الكامل المجزوء]

شهـــر الصيـــام مبـــارك	مـا لـــم[2] يكـن في شـهر آب
خفـــت العـــذاب فصمتـه	فـوقعت في نفـس[3] العـــذاب

والشـمس في الانقلاب الصيفي تطلع في ٢ سـاعة و٤٧ دقيقة، وتغرب في ٩ سـاعات وربـع، ولهـذا من أول شـهر آيـار إلى أول شـهر آب لا يوقـدون فوانيس الحـارات، ولما رأيت أول مـرة إيقاد فوانيـس الحـارات أول آب، وكانت كاملة الضوء وشكل مصابيحها كالهلال، قلت:

---

(١) نُسـبت الأبيات إلى أكثر من شخص ، فنُسبت إلى أبي سهل البوشنجي في التذكرة الحمدونية، محمد بن حسـن بن علي بن حمدون، تحقيق : إحسـان عبّاس، بسـكر عبّاس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ج٩، ص ٤٠١؛ كما نُسـب إلى ابن المعتز في: حسـن اليوسي، زهر الأكـم في الأمثـال والحكم، حققه: د. محمد حجي، د. محمـد الأخضر، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء (المغرب)، ١٩٨١، ج١، ص ٣٠٥، ونُسب أيضًا لأبن الرومي في: علي بن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، دار الطباعة الأميرية المصرية، ١٨٦١، ص ٩٢.

(٢) في التذكرة الحمدونية: (إن لم)، وفي زهر الأكم في الأمثال والحكم: (لو لم)

(٣) فـي التذكـرة الحمدونيـة: (في عين)، وبين البيتين بيت هو (اليوم منه كأنه في طوله يوم الحساب)؛ وفي زهر الأكم في الأمثال والحكم: (في عين).

لله ما أحلى الفوانيس التي ... مصباحها يبدو كشكل هلال
لولا تعددها لقلت أهله ... لكن أقول إذن نجوم ليالي

مع أن الليل بعد لم تتكامل ظلمته بل فيه بقايا النور، وتأتي الناس بكثرة لرؤية ذلك أول مرة ثم يتركون، وندر تبسم الخريف، بل هو دائمًا عبوس مظلم محزن بسبب أمطاره المتتابعة، والسماء المغطاة ببحر من الغيم السنجابي والرياح العاصفة في الجو، كل هذا يعرض النفس للحزن ويتعب ويضعف الجسم ويوحل الطرق، فأظن أن أوحالها تقصر عن أوحال نيسابور التي وصفها الأستاذ أبو نصر الأصفهاني[1]، فقال[2]: [البسيط]

كيف المسير بنيسابور في الطرق ... وبيننا أبحر تطمو من اللئق
يا حبذا البحر ينجو فيه صاحبه ... بالعوم أو بركوب الفلك من غرق
ترش منه على أثوابنا لمع ... حتى يعود جديد الثوب كالخلق
كأنما رطبها فيها ويابسها ... ما اسودَ وأبيض فوق الجلد من بهق

وفي هذا الوقت، الهدوء مضر[٣٧/و] والحركة لازمة، والريح الغربي في شهر تشرين الأول والثاني يهب بشدة، وتارة يهيج الصواعق التي تسبب بغتة فيضان المياه التي في وسطها أسست المدينة، ويبل الحارات الواطية، والصر القاسي من عيد الميلاد إلى ٢٠ كانون الثاني، وحينئذ ينزل ميزان الهواء إلى ١٨ أو٢٢، وندر جدًا أسفل، وتاسع شباط سنة ١٨١٠ كان في ميزان الهواء ثلاثين تحت الصفر، وفي ٢٣ كانون الأول، ٢٥,٣١ ، ومن سنة ١٧٦٦ إلى سنة ١٧٧٠، وصل البرد إلى ٣٣، و يحسن هنا إنشاد قول أبي سعيد الآبي (٣) من شعراء اليتيمة في وصف البرد:

---

(١) هو محمد عمر بن محمد الأصبهاني، أبو نصر. توفي سنة ٥٨١هـ. أبو الطيب الباخزري: دمية القصر وعصرة أهل العصر، ج١، تحقيق: محمد التونجي، بيروت، دارالجيل، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص ص ٤٣٠-٤٣٨.

(٢) انظر الأبيات المصدر السابق، ج ١، ص ٤٣٤.

(٣) هو: أبو سعد منصور بن الحسين الآبي. الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج٤، ق٢، ص ص ١١٩- ١٢٦؛ وابن شاكر الكُتبي: فوات الوفيات، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د. إحسان عباس ، ج٤، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣، ص ص ١٦٠-١٦١. والأبيات في يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج٤، ق٢، ص ص ١٢٣-١٢٤.

في موضع خفيت به الـــ ... أصـوات بـردًا في النـداء
فالريـق يجمـد في اللها ... والصوت يجمد في الهواء
نطأ الزجـاج في الزجـا ... ج إذا مشينـــا في فضاء
والجـو يلمـع في نـوا ... حيـة ضريـت كالهبـاء
وكأنمـا صقلـت بـه ... بيـض السـيوف أو المـراء
جمدت له الصهباء حتـ ... ـــى قد أتتـك بـلا إناءِ
فـإذا أردت خرطت مصك ... مـن رحيـقٍ أو طـــلاءِ
لـو عايـن العـذرى مثوى ... قـد رضيـت بـه نـواء
أو حلَّـــة ألهـــاه عـــن ... جـــر الهـوى بـرد الهواء

وليس بلازم أن تقول إن أقصر يوم في الشتاء مساوٍ لأقصر يوم في الصيف، بحيث تكون الأشغال غالبها في نور الشموع، ومع ذلك فلا يغترون عن أشغالهم، بل الأمر بالعكس ينشطون، والظلمة لا تعوق، إذ المدينة موقودة دائمًا، وكذلك البيوت، وقلّت الأمطار في الشتاء سبب الصر الكالح، إنما هو الثلج الذي ينزل أول الشتا فيغطي الأرض ويبيضها فتتزحلق الناس في العربات وينسرون بذلك، وعلى الأنهار فلا يصلح في هذه البلاد قول القاضي عياض[1]:

كأن نيسـان أهـدى مـن ملابسـه ... لشـهر تمـوز أنواعًـا مـن الحُلـلِ
أو الغزالـة في شمس الضحـى خُرقت ... فما تفـرق بين الجـدي والحَمَلِ

ولا قول الآخر: «وكان أبخل من تموز في المطرِ»

ولا قولي:

فرأيت الحبيب شَحَّ بوصلٍ ... مثـل مـا شـحَّ بالحيـا تموز

(١) عيـاض بن موسـى بن عياض بن عمرو بن موسـى بـن عياض بن محمد بن موسـى بن عياض اليحصبي، القاضي، أبو الفضل السـبْتيّ. توفي سنة ٥٤٤هـ. ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلـس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق: بشـار عواد معروف، ج٢، تونس، دار الغرب الإسـلامي، الطبعة الأولى: ٢٠١٠،ص ٧٤-٧٥؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان، مصر سابق، ٣ ، ص ص٤٨٣-٤٨٥؛ والذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج١١، ص ص ٨٦٠-٨٦٢. وانظـر الأبيات عند ابن حجة الحموي: ابن حجة الحموي: خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شعيتو، ج٢، بيروت، ط١، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٧، ص ٢٤٤.

[٣٧/ظ] إذ ليس المطر من ملابس نيسان حتى يهديها لتموز، بل الأمر بالعكس، فتموز كريم بالأمطار في هذه الديار، فيحسن فيه قول الأستاذ أبي المعمر يعمر من شعراء الخريدة[1]: [البسيط]

والجو ما بين تسجال الغمام وتسجـــ ... اع الحمام وتسجام الشآبيب
فمن هزارٍ على الألحان مرتجز ... ومن رذاذٍ على الريحان مسكوب

وقد لوحظ أن عند قرب البرد القاسي يتغطى أديم الأرض في وقته ببساط ثخين أبيض من الثلج، وتتغطى السطوح الذي غالبها أسود بالثلج، كما قلت:

واسنمة السطوح السود حازت ... بياضًا حين جللها الجليد
فهل شابت من البرد الذي لا ... محالة قد يشيب به الوليد

وقلت:

انظر لأسنمة السطو ... ح وقد تغطت بالجليد
كبرادة من فضة ... نثرت على لوح حديد

وفي سنة ١٧٠٩، وسنة ١٧٤٠ حين الشتويات القاسية جدًا غطت جزءًا من خور البندقية بسطح قوي وكبير من الجليد، كان البرد بحسب ملاحظات العلماء نازلًا في ليبزيغ إلى ٢٠، وفي فرانكفور إلى ٣٠، وفي أوبسال إلى ١٨، وفي ڤيمار إلى ١١، وفي لوندرة وهامبورغ ودانتزيغ أسفل من ١٨، وفي بتر بورغ من ١٥ كانون الثاني إلى ١٥ آذار سنة ١٧٤٠ بين ٢٦ و ٣١، وبملاحظات علماء الطبيعة اختبر الثلج الذي يغطي الأرض بأكثر من قدمين في العمق، وبرهنوا أن الأرض مع وجود هذا البرد المستمر الخارج عن العادة ما تجلدت إلا بعمق ثلاثة أقدام، ولهذا البذور وجذور الشجر ما انضرت، والصيف الذي عقب ذلك كان مخصبًا للغاية.

وفي كانون الثاني سنة ١٧٤٠ بنى على النيڤا أمام القصر بيت من الجليد طوله ٨ سجين، وعرضه ٢ وسمكه ٣ [٣٨/و] مسقف والجدران مبنية بصخور عظيمة مكعبة من الجليد الذي صبّ بينها كالخافقي الماء الذي يتجلد في

(١) هو أبو المعمر، نعيم بن الحسن بن المظفر. أبو الطيب الباخزري: دمية القصر وعصرة أهل العصر ١: ٦٠٤-٦٠٦، وانظر الأبيات في المصدر السابق ١: ٦٠٦.

الحال ويلحم الصخور، وعلى السقف بنيت ممشى مربعة مزينة بكبوش مصورة، ووجه البيت مزين بأعمدة فوقها قوصرة متوجة بالتماثيل، وتحويط الباب والشبابيك الذي في غاية الذوق منقوش برخام أخضر، والشبابيك وحتى قزازها من جليد رقيق، والبيت محوَط بحاجز جميل بدرابزي فيه باب كبير وبابان صغيران، وعلى هذه الأبواب موضوع قصاري برتقان أخضر، وفي الجوانب أشجار عادية جذرها وأوراقها حتى والأغصان الجاثمة عليها الطيور مصنوعة من الجليد بغاية الإتقان، وخارج الدرابزي ٦ مدافع عيار ٣ أرطال مع آلاتها من عجلة ودكة وغير ذلك، و٢ هاون عيار ٨٠ رطلاً، و٢ دارفيل، وعلى يمين البيت وشماله هرمان مربعان فارغان، وفيهما في الجهات الأربع من أعلى طبقات مدورة، وعلى يمين البيت بمسافة قليلة فارسان ربعا القامة بقرب فيل كبير كالعادة فوقه فارس ثالث قائده، وعلى الشمال حمام معرق دفئ، وفي عدة مرات لبعض ناس استحموا، وكل هذه الأشياء مصنوعة من الجليد المنشور المنحوت المصقول بغاية الاعتناء بلا خلط شيء آخر من الإجرام الجامدة.

وهذه الأشياء مع اتساقها وإتقان كلها وكل جزء على حدته تتميز بهندسة دقيقة وتقضي العجب بصلابتها، خصوصًا مدة الامتحانات المختلفة المصنوعة بحضرة القيصر[1] ٣٨ظ وعائلته، وجملة كثيرة من الناظرين، وقد طلقت مدافع الجليد بجلة حديد ونصف رطل بارود صب بلا تعمير في القصبة، والجلل أصابوا لوحًا من الخشب ثخنة قدمان موضوع بمسافة ٦ خطوة، والأهوان المعمرة بربع رطل بارود رموا البنب.

وفي الليل الدرافيل تصب من مناخيرها من عمد عالية النفط الملتهب، والفيل يصب من خرطومه ماء بقوة بعلو ٢٤ قدمًا الذي في محلها في الليل عمود نفط بتلك القوة، والماء والنفط مجلوبان من الترسانة بواسطة مجاري، وزيادة على ذلك رجل مستتر يحكي صياح الفيل بواسطة بوق موضوع في جسمه، وفي الأهرام كان معلق فوانيس تهتز طول النهار، وكانت منقوشة بمئة لون وبصور غريبة ومضحكة، وفي كل هزة تظهر صورة في طبقات الأهرام تحظ السكان، وفي الليل تولع الفوانيس، وزينة هذا البيت الشتائي من داخل

تقضي بالعجب أيضًا بواسطة إتقان الأشياء الجليدية الموجودة هناك ودقتها، فيدخل الإنسان بعد صعود بعض سلالم في مدخل محتو على أربعة شبابيك.

وفي كل من جهتي هذا المدخل أوضه بخمسة شبابيك بسقف تحتاني فقط، في واحدة منها سفرة الفندرة تحت مرآة، وشمعدانات، فيها شمع يولع مدهونًا بالنفط، وساعة وأواني مختلفة، وجزر صغيرة، وقزازات صغيرة، وفي الجدار الحاجز معلقة مرآة أخرى، وفيها فرشة بناموسية ومخدات وألحفة وغير ذلك، وبقرب الفرشة طاقيتان وزوجان[٣٩/و] من البوابيج، وفي مدخنة مزينة بالتماثيل المجسمة، يولع قطع الجليد المدهونة بالنفط، وفي الأوضة الأخرى سفرة عليها ساعة دقاقة، وورق حقيقي للعب ملصق بالسفرة بواسطة الصر، وفي الطرفين كراسي، وفي الأركان تماثيل، وهناك دولاب مزين بصور، ومملوء بأواني النقل والحلاوة وصواني للشاي، وكبايات وملاعق وأناجر مع أطعمة وصحون مملوءة بالفواكه، كل هذا من الجليد مصنوع في غاية الذوق واللطف في غاية التطقيم لهذا الغرض، وهذا البيت في النهار بسبب شفافية الجليد المصقول الذي يميل لونه إلى الزرقة كأنه مبني من حجارة الياقوت الأزرق، وفي الليل الأضواء تلمع في داخله، وفي أعلى الأهرام والجدران تصير بالكلية نيرات، وهذه الأنوار التي تقصر العبارة عن وصفها الساطعة على ألف زينة من الجليد تظهر للناظر المندهش صورة قصر من قصور الجن، وهذا القصر بني لأجل عرس، واحد مُسخَّرة من القصر الملكي الذي غير دينه، ومعلوم أنه سكن هذا القصر مع زوجته بعض أيام، وكان مأذونًا لكل الناس الذهاب للتفرج على هذه الأعجوبة والتحفة المرغوبة، لكن كثرة الغاوين وازدحام المتفرجين خرج عن الحدّ حتى اضطر إلى تحويطه بالخشب ونصب ديدبانات عليه.

ومن ١٥ كانون الثاني إلى أوائل آذار بقى هذا البيت العجيب الساحر للُب اللبيب بغاية القوة بواسطة البرد المستمر من ٢٥ درجة إلى ٣٠ درجة، وفي نصف آذار الثاني ابتدأت الحيطان في الانشقاق، وبعد ذلك بقليل تساقطت[٣٩/ظ] بالكلية نحو الجهة القبلية، فحينئذ خرب ونقلت صخور حيطانه بالتعظيم

إلى سردابات الجليد التي في القصر، لأن في هذا الشهر تقطع صخور كالجنادل من النيڤا، وتحمل إلى السراديب لتبريد المياه وتجليد الحلوى وبعض الأطعمة فتبقى إلى الشتاء، وقد صنَّف الخواجة كرافت أحد أعضاء أكديميا العلوم والمعاصر المعاين لذلك الزمان كتابًا وصف فيه هذه البنية العجيبة، وذكر التجربات والملاحظات التي ذكرها علماء الطبيعة في شتاء سنة ١٧٤٠ في هذه المدينة، وهذا الكتاب طبع في بتر بورغ سنة ١٧٤١.

والآن يوضع في الشتاء تارة نحو الحافات اليمنى واليسرى من المنزل المنحدر الذي يبنى بأخشاب وألواح ثخان فوق مرسى النيڤا دعائم من الجليد لإمساك حائط هذا المنزل، وفي سنة ١٧٣٣ في المنزل المجاور لقصر المرمر بنى فلاح دويرة من صخور الجليد التي يغطي بردها دائم الخرق المحفور لغسل الثياب، وباب البيت وشبابيكه رميت بصناعة بواسطة كرات الثلج، وهذا يمكن أن يكون وحده المرئى من هذا النوع في بتر بورغ بعد القصر المشهور سنة ١٧٤٠، وقد بنى في مدينة لوبك سنة ١٧٤٠ أمام باب المدينة الكبيرة برج من الجليد، وعلى المتراس ٥ مدافع، وفي الوسط سبع طوله ٧ أقدام، وهذا البرج كان محكم البناء، إلا أنه تقليد صغير، لقصر بتر بورغ الفريد في بابه، وإذا تجلد النيڤا وسكن تماوج الجليد على سطحه وضعت ألواح من ساحل إلى آخر لأجل العبور، فما أعجب هذا أول رؤيته والجمَ غفير والخلق كثير، ثم بعد تقوي الجليد لا حاجة لهذه الألواح بل يمر الناس على سطح النيڤا، فكم من واقية تمشي على الماء وإذا زاد تقويه [٤٠/و] إذن فى وطئه بالعربيات، وحينئذ يكون كالارض الصلبه وعليه كالتراب، ويكون مصفرًا قليلًا من دوس المارة، وقلت فى المفاخرة بينه وبين النيل:

هيَا انظروا ما أصاب نيڤا ... حتى غدا أصفر الإهاب
النيل ماء وذا تراب ... والماء يعلو على التراب

وقلت أيضا:

إن قيل إن النيل في المـــ ـــدبه طين قذِر
فإن نيفاكم حكى جموده الشب الزفَرُ
النيل عذب سائغ وذا كطود منقعر

وإنما وضعت هذه الألواح لتعجيل المرور، فإنه إذا انتظر وضع القناطر أو تقوى الجليد طال الأمر، وذلك لأنه لابد من أسبوع لوضع القناطر بسبب قطع الجليد الذى كالصخور، وربما هلك فى هذا الشغل الشاق بعض الناس، وأمّا بعد التحلل فالعبور فى الزوارق ممكن حتى مع وجود بعض جليد ورد القناطر سهل لعدم الجليد، وفي كل سنة بعد تحلل النيڤا بنحو أسبوع يرجع الجليد من بركة لا دوغة بقوة لا تستطيع أن تبقى معها القناطر، بل ترفع لكن فى هذه السنة سنة ١٨٤٤ لما تحلل النيڤا لم يمكن الشغالة رفع القناطر، بل أخذها الجليد وذهب ٧ فرست، ثم ردت بعد جمعة بواسطة مركب النار لكن متفرقة، وذلك إن هذه القناطر مركبة من ١٧ سفينة كبيرة ملوح فوقها، ويمكن رفعها وردها حتى عند عدم الجليد كل ليلة ترفع لأجل عبور السفن، لكن عمَرت وردت كحالها، وما رجع الجليد هذا العام من لادوغة.

[٤٠/ظ] فهذا من نوادر هذه السنة كما إنَّ من نوادرها تحلل النيڤا بسرعة بحيث لم يمكث على سطحه الجليد، وأما فيضان ماء النيڤا في بتر بورغ فيقع كل خمس سنين أو ست بسبب تغير الهواء وعصف الريح، لكن في سنة ١٧٨٨، وفي سنة ١٨٠٢ اشتدَ ذلك ففاض الماء في الحارات، ولكن هذا بالنسبة لمصيبة طوفان ٧ تشرين الثاني سنة ١٨٢٤ كلا شيء، وكان اليوم السادس كنذير الخراب، فأمطرت السماء طول النهار، وكان الريح باردًا جدًا، يهب بشدة عظيمة، بحيث إنه عند المساء زاد الماء جدًا، والسُكان الذين لم يتعودوا على هذا الفيض العميم، ولم يتصوروا أن ينشأ عنه هذه المرة من الخسارة أكثر من المرات السابقة، ولو استمر الماء على الارتفاع قضوا الليلة بلا خوف، وناموا بالهدوء والسكون، وما أنشدوا قول الشاعر:

والليالـي من الزمـان حبالى مثقـلات يلـدن كل عجيبـه

وتفكر أهل الحزم والاحتياط أن الماء في الصبح يهبط على العادة، لكن مـن المصيبة أن كان هذه المـرة بالخلاف ولله خرق العوائد فهبت في الليل ريح بارد قبلي شرقي، وزاد من ساعة إلى ساعة في العصف حتى صار صاعقة، وفي الصبح اجتمع على ساحل النيڤا أمام قصر الشتاء خلق بلا عدد يضربون الأمواج المتصاعدة بسـبب الصواعـق، وعلى وجوه الناظرين يلاحـظ الحيرة والانبهات لا الهـول؛ لأنـه لا أحد إلى تلك السَـاعة خاف مصيبـة دانية، وطاقـة قاصية، ثم بالسـرعة تجـاوز الماء الحـد، وبلغ ١٣ قدمًـا، [٤١/و] و٧ أصابع وعبر السَـواحل إلى الحـارات مـن كل جهة إلا حـارات ليتيـني وكاريتني وروجيستفينسـكي، وزاد حتـى عامـت السـفن الكبيرة في الحارات، وأرسـت عند شـبابيك البيوت ومشـربياتها، وقصر الشـتاء كان كصخـرة يتفجر منها المـاء من كل طرف وتضربهـا الأمواج وترمي بزبدها إلى الدور الأعلى، والنيفا يغلي ويتماوج بقوة وسـرعة فرقت شمل القناطر، وشـتتت جمع السـفن الثقيلـة، وركابها رفعوا أيديهـم إلى السـماء منتظريـن الممات قانطين مـن الحياة، وكثـير من صخور الصـوان تخلخل أو انقلب، وفي كل موضع النـاس الذين يفاجئهم الماء ينطون إلى شـبابيك البيوت، أو يتعلقون بأعمدة الفينارات، أو بأغصان شجر البولڤار، أو بأعلى العربات، والخيل هلكت وفي لبَاتها العدة، والأطفال الذين ذهبوا إلى المكاتـب غرقوا، وفوق المـاء يطفو كثير من الأمتعة الذي نهبها الماء من البيوت، ومن الصلبان التي قلعها من القرافات البعيدة، فهل هو مسلم؟

والمصيبة كانت أدهى وأمَر وأشئم في النواحي الموضوعة على ساحل النيڤا الأيمـن في الأماكن القريبة مـن الخور، فهناك علا المـاء ١٦ قدمًا، وهلك كثير من الناس خصوصًا في معمل الحديد، فإنه لما أخذ الماء في الفيض أذن للشغالين بالسـكنى في الدور الفوقاني، لكن سـرعة الماء عاقتهم، واضطروا لتخليص حياتهم أن يشـاهدوا هلاك أموالهم وعيالهم ونسائهم بلا وسيلة للخلاص وبعد الظهر بسـاعتين حاكم [٤١/ظ] المدينة الكونـت ميلو رادو ڤيچ ظهر في زورق باثنى عشـر مجدافًا في شارع نيڤسـكي، وكثير من الناس ذهبوا في الحارات في زوارق، وبسببهم تخلص كثير من الناس.

وبعد الظهر بساعتين وبعض دقائق بلغ الماء منتهاه من الفيض، ثم أخذ في النضوب والفيض ذلك النهار بعينه، وكل شيء بلغ الحد انتهى، فما أفظع تلك الليلة الخراب والظلمة العظيمة، والاختلاط بحيث يستحيل توليع الفينارات؛ لأن الصاعقة كسرتها، وفي كثير من الحارات تساقط الأبنية وانشقاقها، وفي غيرها كان العبور مستحيلًا، وكم من مئات من الناس يبكون على هلاك أموالهم وغيرهم أسوأ حالًا منهم يبكي جيف أقاربه، وغيرهم محروم من المسكن والقوت والملبس يثنون على طلول بيوتهم المندرسة.

وفي اليوم الثاني أخذت الرأفة قلب الكبار، وذهب ثلاثة منهم أولًا إلى بيت الحاكم، وأعطوا مبلغ ٧٥٠٠٠ رُبل لحوائج المساكين اللازمة وبيت الحاكم فتح، وصار مضيفة للناس الذين فقدوا أسباب المعيشة، وأعطى لأربعمائة عائلة وثمانين ثيابًا ونقودًا للإعانة، وكان يتغذى في بيت الحاكم ويتعشى ٥٠٠ نفس كل يوم، الذي منهم ٢٥٠ يسكنون فيه دائمًا، وقسم في اليوم الأول خبزًا بأكثر من ٣٥٠٠ رُبل، وفي هذه الفرصة ظهر كثير من صدقات الناس السرية الذين لا يريدون أن يظهر اسمهم لتواضعهم، وكثير من المحسنين يأتي إلى بيت الحاكم، ويأخذ بعض الفقراء منه ويمونهم عنده سنة، والمملكة أعطت المثل على عادتها فنسيت خسارتها الخاصة [٩٤٢/ا] واشتغلت بإنقاذ العامة وإعانتهم، فأعطى القيصر مليون رُبل ليقسم عليهم، ولأجل تسهيل وسائط الإعانة والإسعاف أمر بنصب ثلاثة رؤساء تحت حاكم المدينة: واحد في وسيلي استروف، وواحد في جزيرة بتر بورغ، وواحد في ناحية ڤيبورغ.

وكان القيصر يروح بنفسه لامتحان المباني المنهدمة، ويعين رعيته بالرقة والشفقة كالأب الرحيم، والملك الكريم، ورتب جمعية في وسط المدينة، وأمر أن تُرسل الأدوية للمرضى في كل موضع بلا تراخ حسب أمر الحكيم، وبعد أيام قليلة من هذا الطوفان البارد جاءت الحمى الصفراوية بين أدوان الناس، إن المصيبة ليست بيضة الديك، فأرخص القيصر الملح والخبز وغيرها من الأقوات

اللازمة، (وفي عدة من أخطاط المدينة يقسم الخبز وغيره من الأقوات)[1] اللازمة صدقة من طرف المملكة، وجلب من الريف كثيرًا من الفلاحين للأشغال، أجرة الواحد عينت برُبل ونصف في اليوم، وهذا السعر ارتفع بسبب الدعاوى المفرطة من الشغالين الموجودين في المدينة آخر تشرين الثاني، وصاروا لا يأخذون أقل من ستة رُبل في اليوم.

وبواسطة هذه الاجتهادات زال الضنك والمرض المسببان عن هذا الحادث المنحوس، وبرحمه اللّه وإسعاف القيصر والمحسنين انمحى ذلك الأثر.

وفي ١٥ تشرين الثاني اشهرت الصلاة لشكر اللّه الذي يعاقب ويعفو، ولا يستقصي في الغضب، وفي ٢٢ من ذلك الشهر أشهرت صلاة الجنازة على كل غرقى هذا الطوفان، ثم انمسح ذلك حتى من حافظة الناس ودخل في تاريخ هذه المدينة، [٤٢/ظ] تذكرة للنقم والنعم، والخسارة العظمى في هذا الحادث، هي خسارة الناس، ففي المدينة وأطرافها هلك ٤٨٠ نفرًا، ولا يمكن ضبط الأشياء التالفة بالتحديد بل بالتقريب، وانهدم من البيوت بالكلية ٤٦٢، وتعور ٣٦٨١، وانكسرت القناطر غير الحجرية، وهلك من المواشي ٣٦٠٠، وفي سوق المتجر تلف ٣٠٠٠٠٠ بود سكر، والبود أربعون رطلاً، ومثلها من الملح، ومن الغرقى ما يساوي أكثر من ٥٠٠٠٠٠ رُبل، ومن الدقيق ٦٠٠٠٠٠ بود، ومن الخمر الغريب وغيره من المؤنة ونحوها ما يساوي عدة ملايين، وكان المبلغ الموزع على المصابين بهذا الحادث من طرف المملكة ومحسني الرعايا ٤٠٦٦٤٨٦، وهذا بقطع النظر عن الصدقات السرية الحاصلة من ناس عديدين للعيال المحتاجين، ومع وقوع الفيضان، بل الطوفان في هذه المدينة، فليس الخطر عظيما بسبب الوسائط والاحتياطات المرتبة، وأكثر وقوع الفيضان في الشهر الأخير من الخريف، لكن في سنة ١٨٢٧ عصف ريح غربي وارتفع الماء ٢٩ ذراع ٤ أقدام و١١ أصبعًا، فكان هذا حادثًا خارقًا للعادة في مثل هذا الفصل، وأطلقت المدافع وولعت منارات الخوف لإنذار الناس لكن ذهب ذلك الخطر من حيث أتى.

(١) تكرار بالمخطوط.

الفصل الثاني

اعلم أن بتربورغ مشبهة لحادثة من حوادث الدنيا أصلية وحكمية التي أنشأتها خواطر القيصر الراسخة بلا حد، وأعانه على ذلك اجتهاد قومه المذعنون له بالقلب، طبعت خاتمًا في صفحة الدهر لا ينمحي، بتربورغ منشأ التجديدات [٤٣/و] الروسية، بتربورغ التي ظهرت[1] بغتة في النواحي المتباعدة من الشمال مثل نجم صغير التفت نحوه كل العالم بلا اسره بلا إرادة، هذا التخت المزهر اللامع الريان الذي لم تذبله[2] يد غريب متغلب، الذي له أول رتبة بين مدن الأوروبا بسبب تاريخه العجيب وحسنه وتأثيره المتوحد على المملكة الواسعة التي قبضت بين يديها في أيامنا بخت الأوروبا بتر بورغ التي تفكرنا دائما ببطرس الأول أصل كل ما نراه في الروسيا، ومنبع منه يغترف كل ما يفعل في المستقبل، ومن وقت ما أظهر الشمال بتر بورغ إلى الثلث الأول من القرن الثاني حصل التأسيس والزيادة والتحسينات العجيبة في هذه المدة القصيرة التي مع أنها غير مرئية في تواريخ المدن الأُخر كافية لها تمشي بقدم جبار من صغرها إلى العمر المستوى.

بتر بورغ مشابهة للشجعان الروس في زمن الخرافات لم تشب من سنة إلى سنة بل من ساعة إلى ساعة، وحذق مؤسسها عام على مهدها، والعقل الثابت الألمعي والجسور من أمة الروس المحلى بقوة متينة رأسية لا تتزلزل، رَبَي وغَذَي شجاعة الشاب، وبتربورغ لم تزل من يوم إلى يوم تجذب ملاحظات الناس المتمدنة، وهذه المدينة منبع الحمية الروسية، ولها تعلق واسع بالتجارة، وتزورها سكان المدن الأخرى غالبًا، وتحتوي على أشياء لطيفة وكبيرة حقيقة، وبالنظر إلى طباع الروس وكيفية معيشتهم وقلة معرفة الأوروبا بلسانهم، وبألف سبب آخر تقتضي تبيينًا كافيًا وتفصيلًا وافيًا فنقول:

---

(١) كتب المصنف فوقها: بزغت.

(٢) بالهامش الأيسر من المخطوط كتب المصنف: يعني وأما موسقو فذبلتها يد نابوليون كما هو معروف.

[٤٣/ظ] الجهة التي رمي فيها أساس بتر بورغ في سنة ١٧٠٣، كانت منسوبة للروسيا في الزمن القديم، ونهر النيڤا المحدق بالمدينة معروف للروس من زمن نستور، والخطان القديمان اللذان على النيڤا: واحد على الشمال ويسمى ناحية اينغري، والثاني على اليمين ويسمى كاريليا، كانا باسم فوتسكيا پياتينا من أعمال نوڤغورد الكبرى، والقيصر إيڤان الثالث في القرن الخامس عشر لما أضعف القوة الجمهورية التي كانت مزهرة في الزمان السَالف أدخل في ذلك الوقت تحت قوانينه كل البلاد التي كانت تحكمها، وسواحل النيڤا الذي كان مدة قرون طريقًا لنوڤغورد الخارجية رأوا عدة مرات الروس، وسمعوا غير مرة صياحهم بالنصر قبل أن ذهب بطرس الكبير لتملكها وردها إلى الروسيا.

والنوڤغورديون من مدة النصف الأول من القرن الثاني عشر كانوا يرسلون السفن موسوقة بالوسق المفتخر، وفي سنة ١١٤٢ فرقوا وهزموا دننما السويد التي دخلت في النيڤا لتخريف اينغرى وكاريليا وبعد نحو مائة سنة يعني في سنة ١٢٤١ أرسل ملك السويد إريك الكبير مهيجًا بحقد النوفغورديين الذين كانوا يغيرون على الفينلاد بالتوالي دننما كثيرة العسكر؛ لتسخير نوفغورد، ولما جازت عمارة أريك بحر بلطيق ودخلت في النيفا، وقاطعت الطيار[1] حتى وصلت لملتقى النيڤا ونهر أيزور، وصل في رأس جيش اسكندر يار وسلافيج أمير نوڤغورد الذي قدسته حينئذ الكنيسة، ودعا السويد للقتال، وبعدما غرق أغلب السفن ألجأ الباقين إلى الفرار بالسرعة، وبعد ذلك النصر المشهور بخمسين سنة [٤٤/و] الذي بسببه لقب هذا الأمير نيڤكسي سيمون وپوسادنيك رؤساء القوة الجمهورية في نوڤغورد تسلحوا على الأبطال الحاملي السيوف الذين لا يزالون يكدرون الأرض المنسوبة إلى ڤوتسكيا پياتينا، وكان التلاقي سنة ١٢٩١ عند فم النيڤا وقاتلوهم ودمروهم، وبحيث أُغرقت كل مراكبهم.

وقبل سنة ١٢٠٣ السويد الأعداء الزرق للنوڤغورديين اجتهدوا في سد أبواب التجارة عليهم، ولهذا القصد منعوا أن تصل لهم في البحر الأسلحة وغيرها من الحديد، ولأجل أن يصلوا بالسرعة إلى مرامهم، اجتهدوا في تملك فم النيڤا،

(١) كذا كتبها المصنف.

وبنوا في سنة ١٣٠٠ على ساحل النهر أوضة، وعلى ملتقاه مع النيڤا قلعة صغيرة سموها لانديسكرون يعني «تاج الأرض»، لكن هذه الحركة ما دامت؛ لأن النوڤغورديين لما فهموا الأمر جاؤوا في ربيع السنة التالية وطردوا السويد وحلقوا[1] القلعة، ثم في سنة ١٣٢٣ لأجل التضييق على أعدائهم الحربيين في السفر من بحر بلطيق إلى بركة لادوغة بنوا في المركز الذي فيه ينفصل النيڤا من البركة في قرية أورخوف الحصن المسمى في هذا الوقت أورخوفتز أو أورشوك المذكور كثيرًا في تاريخ الروس.

ثم في سنة ١٣٤٨ ماغنوس ملك السويد لما صمم على نقل النوڤغورديين إلى الدين اللاتيني هجم على اينغرى وأخذ أورشوك، واستعد للهجوم أكثر لما رأى نتيجة الظفر، لكن النوڤغورديين غلبوه، وعلم أن الروس من كل طرف مهطعون حول دننماه الراسية في النيڤا، فالتجأ إلى تولية الأدبار بالسرعة والبداء. وفي سنة ١٤٨٧ يوحنا الثالث هجم بحملة فاصلة على نوڤغورد، وصار أيضًا مالكًا لكل العمارات البحرية [٤٤/ظ] التي بعد نحو قرن صارت للروس إلى الأبد.

وفي سنة ١٥٨١ وسنة ١٥٨٢ القيصر يوحنا الرابع الملقب بالمهدد أو المهول أشرف على ضياع أينغرى وكاربلي، وأخذ السويد نارڤا، وإيڤان غورد، ويام، وكوبوريا، وكاريله أو كيكسولم وصارت في تصرفهم إلى سنة ١٥٩٠.

وفي تلك السنة رجع الكل إلى الروس، وفي سنة ١٥٩٥ اعترف بأن الكل ما عدا نارڤا منسوب للروس بواسطة عقد تياوزين، وفي مدة الكدر الحاصل في فترة الروس عرض عليهم السويد أن يعاضدوهم ثم انتهزوا فرصة ابهالهم الذي خرب البلاد، وفهموا فحوى قول الشاعر[2]:

لا يَصلُحُ النَّاسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم

---

(١) بها تحريف والمقصود: حرقوا.

(٢) هو: صلاءة بن عمرو بن مالك بن عوف بن الحارث بن عوف بن منبه، الأفوه الأودي، شاعر يماني جاهلي، توفي سنة ٥٠ قبل الهجرة. أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٢: ١٦٩، وانظر صدر البيت ضمن قصيدة طويلة في ديوانه، ص ٦٦. وعجز البيت هو:

ولا سراة إذ جُهالُهُم سادُوا

وملكوا اينغرى وكاريلي اللتين زدا لهم في سنة ١٦١٧ بواسطة عقد سطولبون، ولما رأى السويد أنهم حكام سواحل خور فينلاند، ومجرى النيڤا من كل طرف لم يريثوا أن ينتقضوا بحسن وضع هذا النهر، فمن سنة ١٦١١ أسسوا بناء على رأي جنرال غرديا المشهور على ملتقى أوخته على الساحل الشمالي قرب لانديسكرون، ويمكن في محلة بالنفس مدينة سموها نين وبقربها قلعة صغيرة سموها نينسشانتز، والروس يسمونها كانتزي، والتقارير التي كتبها غوستاف أدولف في خصوص هذه المدينة ووقعت عليها كرستينا دعت كثيرًا من التجار أن يستوطنوها، وصارت من سنة إلى سنة أعمر وأزهر حتى صارت في سنة ١٦٩٤ صارت مركز تجارة معتبرة بحيث أن في مدة تلك السنة أرسلت عليها ١٠٨ من السفن، وخرج منها ٨٠، لكن مع تقدم تجارة نين كانت سعادتها قصيرة المدة بسبب أن في سنة ١٧٠٠ وسنة ١٧٠١ سكانها الذين كلهم بحيث تجار وعدة منهم أغنياء جدًا؛ حتى أن واحدًا منهم يسمى فريزيوس سلف شارل (٤٥/و) الثاني عشر مبلغًا جسيمًا، رأوا قرب الاشتغال الحربي، وخافوا زحف الروس فتسللوا في الوقت المناسب، واقفرت بعدهم نين ونينسشانتز المحروس بخفر ضعيف انقلب إلى بوصطة عسكرية منفردة، وكان بشير تضعضعه المستقبل في شهر تشرين الأول سنة ١٧٠٢ حرب نوتبورغ السفاكة هكذا يسمى السويد قلعة أورشك الذي بناها النوفغورديون وقعقعة السلاح التي كانت مبتدأة في سنة ١٧٠٠ في حصار نارڤا المنحوس على كثير من الروس، ابتدأت من جديد في سنة ١٧٠٢ على سواحل النيڤا، ولما اشتهى السويد تغريق عساكر الروس التي تتماوج بالظفر بقرب دورباط، أرسلوا من بحر بلطيق إلى بركة لادوغة دوننما مخصوصة لإخراب القرى، وهدم الديور الروسية المبنية على السواحل، لكن لما علم أوكولنيتشي ضابط المحل وما صاقبه، وإپراكسين مأمور هذه الناحية بظهور السويد، أرسلوا ضدهم تجريد قرابة في ثلاثين سفينة، وقابلوا على البركة سفن الأعداء، وتملكوا جملة منها على كثرة المحاماة العنادية، وأغرقوا جملة، وألجأوا الباقي إلى التحصن في جدران نوتبورغ.

وفي السنة بعينها بعد مدة في شهر تموز أراد الجنرال أن يتدارك هزيمة الدننما، وتقدم في رأس عرضي عديد من اينغرى إلى ثغور الروس، لكن لما هزمه ابركسين بذاته على سواحل ايزور نهر مزين بنصر اسكندر نيفسكي

هـرب نحـو جبل دود رهوف، ومن هناك إلى نينسشـانتز في ٢٢ أيلول من السـنة بعينها تقدم الروس إلى حوائط نوتبورغ.

وفي ١٣ من الشـهر التالي، دخلوها غالبين، وهجوم/٤٥ظ/ الشـتاء عوق جري ظفرهم، والقيصر الذي كان بنفسه في العسكر بعدما سمى مانتيشيكوف المشـهور حاكم القلعـة المفتوحة أرسـله في ذلك الخريف إلى سـواحل لادوغة لادينوية پوله، وأمره أن يبني سـفنًا في متجره المحل ومراكب للنقل تسـتعمل في الربيع الآتي لمحاصرة نينسشانتز، وأخذ نوتبورغ الذي قلب اسمها بطرس إلى شليسـبل بـورغ يعني البلد المفتاح، فتـح الطريق ليس فقط لفتـح المواضع التي ترتفـع عليها الآن بتر بـورغ بل لفتح كل الأسـتوينا، والليتونيـا، وجملة من الفينلاند.

ولمـا عزم بطـرس على تملك سـواحل بلطيق التي كانت منتسـبة للروس أمر فيلد مارشـال شـيرميتوف، صاري العسـكر، والذي كلها في موسـقو بأن يبتـدأ الحـرب في سـنة ١٧٠٣ بالمشـي نحو شليسـيل بـورغ، ومنهـا يهجم على نينسشـانتز، وهذه القلعة الأخيرة التي تظهر شـكلاً مخمسًا مبنيًا في ركن ملتقـى أوخته في النيڤا، كانت من قبل الحرب بين بطرس الأول، وشـارل الثاني عشـر محاطة من مسـافة بعيدة بمتاريس وخنادق محفورة قرب سـاحل النيفا، ومن جانب شليسـبل بورغ وبين القلعة والأشياء المحيطة بها كانت عدة سفن منسـوبة للمدينة، وباقي نـين يعني الجزء الأكبر بقشـلة كبيرة للعرضى، وكنيستين للوتريانيين واحدة للسويد، والثانية للنيمساويين على الشاطئ المقابل لأوخته، وكان هكذا شكل نين ونينسشانتر في خريف سنة ١٧٠٢، وحينئذ وصل خبر أخذ نوتبورغ، وهذا الخبر تقوى سريعًا بظهور تجريدة /٤٦و/ روسـية أرسـلها القيصر في طـول النيڤا من البركة إلى أوختـة، ولما نظر حكم القلعـة قرب مجاورة الروس خاف على قلعته، وتحصـن فيها بعدما أحرق مدينة نين التي دام اللهب يشـتغل فيها مدة ثمانية وأربعين ساعة، وخوف الخفر كان له أسـاس، ولكـن كان قبل الأوان؛ لأن الروس – كمـا قلنا- لا يهجمون قبل الربيع.

ومع ذلك في مدة الشتاء بعض تجريدات مرسلة من شليسيل بورغ من طرف الضابط مانتشـيكوف، كدرت الخفر من وقت إلى آخر، وسنة ١٧٠٣ في وقت ما

سافر شيريميتوف من موسقو، وتقدم مع العسكر إلى نينسشانتز جاء عشرون ألف عسكري، ووصل القيصر إلى شليسيل بورغ، وانتظر وصول العسكر الذي كان في ٢٢ نيسان، ومشى تحت أوامر صاري العسكر مع عسكر القبطان بمصاحبة الطوبجية الذين هم جزء من عرض بري اوبرازانسكي.

وفي ٢٥ نيسان لما كان شيريميتوف على ١٥ فرست من نينسشانتز أرسل قدامه ألفين من المشاة تحت رئاسة بين باشا نيد هاردت والقبطان غليبوفسكي على سفن كبيرة كانت مستعملة على لادوغة، وهذه التجريدة التي لم تكن مأمورة إلا بكشف الموضع قربت من المتراس الخارجي من غير أن يشعر بها في الليل ٢٤ أو ٢٥، وهجمت بغتة على خفر السويد وقلبتهم، وانتهزت فرصة تكدر الحراس، وتملكت من أحد أبراج القلعة، وبعد مثل هذه الضربة باليد لم يبق للروس كثير علاج على الظاهر لتملك الحصون الأخرى التي يحرسها ٨٠٠ رجل فقط، لكن الشجعان الذين [٤٦/ظ] تملكوا من البرج لما لم يكن لهم معاضد وشكوا في الظفر وتفكروا أنهم لم يؤمروا إلا بمجرد الكشف تركوا غينمتهم، وانصرفوا من السويد لما كان لهم وقت الإفاقة من هذا الإغماء، ونظروا إلى موضع الروس تشجعوا وأخذوا الحذر أن يهجموا مرة ثانية، وتحصنوا جدًا، وضيعوا على أعدائهم جمعة زمان، ولما أعلموا شيريميتوف بهذا الخبر، تقدم بكل عسكره في الليل ٢٥ إلى ٢٦، وطلعت الشمس على عسكر الروس وهم تحت حوائط نينسشانتز، لكن محل العسكر كان عرضة لنار القلعة، لكن الغاب والأراضي السبخة وخشونة الأرض ما كان أنسب منها لمرامهم.

وفي ذلك اليوم بعينه الجنرال لامبرت رئيس الأشغال الهندسية الروسية فتح الخندق بثلاثين سجين من القلعة، وابتدأوا في تجهيز التحصينات بصف ١٢ هاونًا و٢٠ مدفعًا جلبت من شليسيل بورغ على السفن التي كانت مصنوعة في مدة الشتاء تحت نظارة مانتيشكوف.

وفي مدة تقدم أشغال الحصار أمر القيصر الذي هو قبطان الطبجية الغفر ـ كما قلنا آنفا ـ في ليلة ٢٨ بإنزال ٤ أرط من عرض بري أو برزانسكي، و٣ من عرض سيمونوفسكي في ٦٠ سفينة، واقتحم بهذه الدنما النيڤا الكبير غير مبال بنار القلعة المهولة، لأجل أن يسد فم النيڤا الذي ربما يصل منه سفن السويد

لإعانة المحاصرين، والسواحل المغطاة بالغابات التي بينها تعوم الدنمنا أظهرت لعين القيصر أرضًا وحشية لا تنعش الناس ليس فقط هذه السواحل، لكن أيضا كل امتداد البقعة التي فيها الآن بتر بورغ ونواحيها، كان مغطى بالغابات [٤٧/و] والمنتقعات غير المطروقة هنا، وهناك يلاحظ بعض دويرات منهدمة النصف يسكنها أهالي الناحية، والصيد كان واسطة تقويتهم العادي، وكان لهم غنيمة إن جاءت سفينة من البحر لأجل أن يكونوا فيها مستعملين لأجل مقاطعة طيار[1] النيڤا.

ثم إن القيصر لما أمَن سكان هذه الغابات في نفسهم وأموالهم، ولم يلاحظ من بعيد على البحر ولا مركبًا للعدو، رجع في اليوم الثاني إلى المعسكر مخليًا في جزيرة كوتويوف ثلاث سرايا من الخفر للذب عن ثغر النيڤا، وفي مدة غيبة القيصر القصيرة أشغال المحاصرة تقدمت بالسرعة، وفي ٣ الظهر كل الطوبجية والمدافع المجلوبة من شليسيل بورغ كانت جاهزة[2] لهدم حيطان القلعة، ولما علم شيريميتوف ضعف الحراس، وأراد أن يجتنب سفك الدم، عرض على حاكم القلعة شروطًا شريفة، إن ردَّ القلعة، لكن بمقتضى جوابه أن يدافع إلى آخر نفس، أمر بالحملة الثقيلة بطلق كل المدافع عمومًا، وردَ السويد كذلك.

وبعد ذلك في الساعة السابعة من المساء إلى السَّاعة الخامسة من الصباح، لم يكن إلا الطلق المتوالي بلا أدنى انقطاع، فحينئذ فقط أحسَ الحراس بضعفهم عن المقاومة زمانًا طويلا، وخافوا من الهجمة القاضية، فمالوا إلى الصلح وخلى لهم السبيل إلى فيبورغ، وكان في آيار سنة ١٧٠٣ في الساعة التاسعة من المساء أن عرض بِري اوبرارنسكي الذي كان فيه شاهزادة الكسي تعلم ضرب السلاح أولا، دخل غالبًا [٤٧/ظ] في قلعة نينسشانتز التي في ذلك الوقت لا أحد حتى بطرس كان يعتبرها محلا لأول عمارات، قصبة مملكة الروسيا الواسعة، وعند فرح القيصر بدخول نينسشانتز في يده بلا سفك دم كثير غيَّر اسمها إلى شلوتبورغ، وفي ٢ آيار الصبح أشهر النصر بشكر اللّه وأطلق كل المدافع ثلاث مرات، وضرب الشنك بالبنادق، وخبر هذا الفتح وصل سريعا على موسقو تخت الملوك القديم، وأشهرته بغاية التبجيل والتعظيم.

(١) بالهامش الأيمن من المخطوط كتب المصنف: تيار.
(٢) بالهامش الأيسر من المخطوط كتب المصنف: حاضرة .

ثم إن القيصر بعدما حمد الله على هذا الفتح كما قلنا، اشتغل بالنظر في القلعة والمدافع وآلات الحرب المختلفة الموجودة فيها، وعند المساء في اليوم بعينه ٢ آيار الخفر الذي خلّاه القيصر عند فم النيڤا أعلم بظهور دننما السويد، وسفن الأعداء تجهل أيضًا وصول الروس إلى نينسشانتز وما توهمت بأي نوع أخذ ذلك المكان فطلقت المدافع إعلامًا بقربها، ولما علم القيصر بواسطة الخفر المغلوبة أن هذه علامات الدننما استحسن أن يخليهم في طغيانهم يعمهون، وأجاب بمدفعين أطلقا من أعلى أسوار القلعة، وهذا الكيد المتضاعف نجح.

ففي مساء خامس آيار أرسلت فلوكة من دننما السويد في النيڤا للتفتيش على مستعملين والعسكر والنواتية الذين كانوا في الفلوكة كانوا بعيدين بمراحل أن يظنوا أن الروس توجد في هذه النواحي، وأرسوا بغية التهامل وأخذ واحد منهم، وأخبر أن هذه الدننما تحت إدارة نائب القبطان نومر الذي غلبه إپراكسين السنة السابقة في لادوغة، وتبع الفلوكة بارجتان بعشرة مدافع فقربتا من فم النيڤا، ورمتا الهلب أمام مدخل النيڤا [٤٨/١و] في انتظار المستعملين والغجر.

ولَما علم القيصر بهذه الأحوال عزم أن يغتنم الفائدة الممكنة من ذلك، فذهب في المساء بعينه وأخذ معه مينتيشيكوف بصفة رئيس الطبجية، وجملة من العساكر بعدما تكلم في ذلك مع فِلد مارشال على ثلاثين سفينة إلى فم النيڤا، بقصد أن يهجم بالشدة إذا جنَّ الليل على السفينتين المذكورتين، والهواء الذي كان أولًا ساكنًا، والسماء المصحية أظهرا تسهيل قصد القيصر، لكن بالسرعة عصف الريح وهاج بقوة إلى نواحي مختلفة.

ثم بعد نصف الليل بدقائق غيمت السماء وأمطرت الخور والنيڤا بشدة، وكان عزم بطرس أن هذه السفن تسير بقرب سواحل جزيرة خيرفيسري المعروفة الآن بوسيلسكي أوستروف يعني جزيرة وسيلي في حماية الشجر الذي يسترها، وأن تنقسم إلى قسمين: قسم يهجم في طرف الدفة من جهة البحر، والثاني في الجوانب من جهة ساحل الجزيرة، والقيصر في انتظار الوقت المناسب رتب دننماه في مضيق جزيرة فيتساري بقرب المحل الذي بني فيه بعد كترينغوف.

وبعد انتظار بعض ساعات آن الوقت المناسب، وفي وسط الظلمة وزوبعة الليل المهولة بطرس الذي كان يشتغل للروس والعرق في جبينه هجم من الطرفين معًا على السويد، ومثّل القيصر هيج الرؤساء والعسكر تحت برد من الرصاص ورش وجلل مطلوقة ليس فقط من المراكب المهجوم عليها، لكن من باقي الدننما التي نشرت قلوعها لتلحق معركة القتال لكن عوقب بسبب قلة الماء والروس[٤٨/ظ] هجموا على سفينتي السويد، حيث تُكشر لهم المنايا عن أنيابها، وما خلص السويد المحمول عليهم لا نارهم المخربة ولا اجتهادهم الناشيء عن الأياس من البخت الذي ينتظرهم، والقيصر هجم على السفن أولًا، وفي مدة بعض دقائق تملك من السفينتين، ومن ٧٧ رجلًا الذين كانوا فيها ١٩ عوقبوا بالموت لعنادهم، وكل الباقين وقعوا في أسر الغالبين الذين أغضبوهم بطول المقاومة وقساوتها، وهذا النصر الذي هو أول ظفر الروس في بلطيق، والذي كان مهمًا جدًا حتى أن بطرس باشره بنفسه، أشهره ١٠ آيار في المعسكر المنظم تحت شلوتبورغ، وقرب السفينتين المجلوبتين بالظفر إلى أمام القلعة.

وبهذه الفرصة الجنرال غولوڤين قبطان باشا أول فارس نشان الحواري القديس أندري قلد بهذا النشان رؤساء الظفر والقيصر وإشرافه مينتيشيكوف، وأنعم على الضباط والعساكر الذين هجموا كل واحد بصفيحة عليها صورة القيصر، ومكتوب فيها الذي لم يكن حاصلًا تحقق.

ولما رأى بطرس نفسه مالكًا لمجرى النيڤا، عزم على الذب عن مكسبه الجديد بالسلاح، وتهيئة كل الوسائط الكافية لقمع السويد، فبعد إشغال فم النيڤا استشار هل يكون محل الذب قلعة شلوتبورغ؟ أو يختار لذلك محلًا آخر أقرب إلى البحر؟ وبعد الحل والعقد انحط الرأي على مد شلوتبورغ بسبب ضيق حدودها وقلة حصانتها، وبعدها عن فم النيڤا بمسافة معتبرة بعد أن تبنى قلعة أخرى أقرب إلى البحر؟ وبطرس لأجل[٤٩/و] اختيار محل مناسب راح في عدة من أصحاب الاعتبار والملاحظة يمتحن الجزائر المتشعبة في النيفا، وهناك سنح لفكره الرأي الصائب أن يؤسس في هذا المحل المتوحد، لكن المظهر منافع عديدة، مدنية كبيرة محصنة، وأن ينعش قفر اينغري وكاريليا بمعيشة ناس يشتغلون بالمتجر والصنائع، ومع أن الغابات الكبيرة والأراضي السبخة الواسعة من كل طرف أدهشت القيصر، لكنها لم تثنه عن إخراج مراده العظيم من القوة إلى الفعل.

فاختار لبناء القلعة جزيرة واطية السطح تسمى اينيساري، يعني جزيرة المعز الموضوعة في النيڤا الكبيرة قبل الجزيرة المسماة اليوم بتر بورغسكي سترنا يعني ناحية بتر بورغ القديمة، وحكى أن سلف شارل ١٢ [1] كان أعطى لأمير من السويد الظاهر أنه الكونت ستينبوك أرضًا واسعة إلى فم النيڤا، وهذا الأمير المذكور لما سحره حسن هذا المكان ومنافع وضعه بنى فيه أبنية، ورتب ضيعة وأسكن فيها الهربانين، وسمى هذا الملك لوست، هو لم يعني «جزيرة الحظ»، ثم بعد مضي سنتين أو ثلاثة مات جملة من سكان الضيعة من البرد في يوم من الخريف قبل ظهور الجليد، وبعد ذلك فاض الماء على السواحل وأغرق الضيعة.

ولما رأى الأمير ضياع أشغاله ومصاريفه، لم يستحسن تجديد العمارات المنهدمة وسمى الأرض التي أنعم بها عليه الملك توفليس هو لم يعني «جزيرة العفريت»، وسافر وترك القرية المنهدمة في زوايا النسيان، وهذه الحكاية من حيث أن أهل العصر لم يقووها، يمكن أنها مخترعة، ومع ذلك هي مطابقة لقساوة هواء بتر بورغ [٤٩/ظ] الذي تذلل الآن قليلًا بسبب زيادة السكان، وتنشيف المنتقعات، وقطع الأشجار الجالبة لذلك، وعزم بطرس الكبير على تحصين جزيرة اينيساري، ويعسر اختيار أحسن بسبب أن القلعة ليست فقط محدقة بحفر عادية بل بمياه النيڤا الجارية العميقة، ومن طرف الأرض صارت منيعة بسبب أن بها أحدقت المنتقعات الخطرة المغطية للمواضع المسماة من ذلك الوقت بتربورغسكي سترنا، وتسميها السويد كويفيساري، يعني« جزيرة القان»، وكذلك الجزائر الأخر القريبة.

وبطرس من غير تضييع الزمان من منذ ١٦ من الشهر المذكور يوم التثليث باشر بنفسه تأسيس قلعة في الأرض ووضع بيديه الحجر الأول من البرج الموضوع

---

(١) و ابن شارل الحادي عشر، وُلد سنة ١٦٨٢، تولى الملك سنة ١٦٩٧، ونظرًا لصغر سنه تألب ضده ملك الدنمارك وملك بولونيا وقيصر الروسيا، فحارب الدنمارك أولا وانتصر عليها، ثم حارب الروسيا فهزمها، ثم سار إلى بلاد بولونيا فانتصر عليها وعزل ملكها وعين مكانه أحد محالفيه، وفي سنة ١٧٠٩ قصد مدينة موسكو فانتصر عليه بطرس الأكبر في واقعة يولتاوا ، فاحتمى شارل الثاني عشر بمدينة بندر ببلاد الترك عدة سنين، وأخيرًا خرج من بلاد الترك قهرًا وتمّ قتله سنة ١٧١٨ عند حصاره إحدى بلاد النرويج. انظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، هامش ٢، ص ص ٣١٢-٣١٣.

على شمال أبواب القديس بطرس الموجودة الآن، والمطل بوجهه الشمالي على بتروبورغسكي سترنا، ولأجل تقوية تحصين القلعة أمام الحائط الملفوتة ضد تيار النيفا عزم على بناء سور بصورة نصف الدائرة، وعلى جزيرة لوسينوي المسماة الآن وسيلسكي أوستروف في الطرف الحاد المحصور بالنيڤا الصغيرة، والذي يسمى بسبب حصانته سترلكه يعني سهم، بنوا قلعة حصينة، وبعد التحصين عينت جزيرة كويفيساري قاعدة المدينة التي سماها الملك من أول وجودها سانكت بتر بورغ تفاؤلا باسم الحواري القديس بطرس.

وكان مينيتشيكوف معاون القيصر في هذا العمل مسمى حاكم المحل ورون بيك كان ناظرًا، وتريزيني الذي أصله إيطالياني، ناظر الطبجية، سُمي بالمعمار والعسكر الذين غلبوا نينسشانتز، ٥٠٠٠ والذين كانوا مخيمين على سواحل النيڤا القرابة على اليمين والخيالة على الشمال، قسموا قسمين: واحد تحت حكم الجنرال الأمير ريپنين بقي في بتر بورغ، والثاني تحت حكم شيريميتوف مشى لحرب قلاع كوپوريا وآم الذي أخذهما بحيث بلا خسارة سبب انقياد كل اينغرى لطاعة بطرس الكبير.

والقيصر في صيف هذه السنة لتفكير رجوع هذه الناحية إلى ملك الروس، رتب ألف رجل عسكرًا مشاة أقوى وأحسن ما يكون، وسمى أولا هذا النظام الأحسن عرضي مينتشيكوف باسم رئيسه، ثم بعد ذلك سماه عرضى اينغرى، ومع هذا العرضي ينتسب بالأصالة إلى العسكر ولا إلى الخفر، له مزايا خفر القيصر، ويسكن دائمًا في بتر بورغ من حيث أنه كان خفرًا مخصوصًا لمينتشيكوف، وإعلاء جزيرة اينيساري وردم المنتقعات وقطع الغابات وبناء القلعة والبيوت والأشغال الأخر، كل هذا يقتضي أيدي كثيرة، ولهذا السبب استعمل القيصر في ذلك العساكر التي تحت إدارة الأمير ريبنين، ثم أهل اينغرى وكاريلي وناس من أولونيتزونوڤغورد، وأحضر من داخل المملكة ألوفًا من الصنّاع والأسطاوات، وكذلك من القزاق والتاتار والكلموك، وأعطاهم للمساعدة أسراء السويد حتى اجتمع في ذلك الصيف ٤٠٠٠٠ ألف رجل مختلفة الصنف واللسان للشغل في أساس بتر بورغ، وليس للشغالين الميرية إلا القوت، ولكن لغيرهم زيادة على القوت كراء ٥٠٠ ثلاثة كوبيك في اليوم، والكوبيك عشر عشر ربل، والكوبيك في ذلك الوقت مثل ١٥ الآن، وأغلب

هذه الشغالة ما كان لهم أولاً لحفر الخنادق وفتح الخلجان، ورفع الشطوط وغير ذلك لا فأس ولا مجرفة ولا معزقة ولا قفه ولا عربة، بل كانوا يحملون التراب الذي يحفرونه بعصي أو بأصابعهم العريانة في أخراج أو في أيديهم أو في حجور قفاطينهم، وبعد الأشغال القاسية هكذا ينامون في الكشف في أرض رطبة تحت الضباب، والغيوم المطرة.

وكان يتفق لهم أيضا مقاساة الجوع؛ لأنه لا يسهل دائمًا تحصيل المؤنة اللازمة في وقتها لأجل ٤٠٠٠٠ رجل؛ لأن النواحي المحيطة بها كانت مصابة بالحروب، فلم يكن فيها كثير إعانة، والريح المخالف عوق سفن الزاد الآتية من داخل الروسيا على بركة لادوغة، والأقوات كانت نادرة وغالية خارجًا عن العادة، وبعد ذلك يمكن أن يتصور التعب والاجتهاد الخارق للعادة الذي يساوي تأسيس بتر بورغ، لكن كان ذلك مقتضى الحال إذ ذاك واعتبار راحة الروسيا بأجمعها لا يأذن بالتأخر أمام العوائق، ومع كل هذا التعب فالاجتهاد الناشئ عن حضور القيصر وعن حسن الترتيب الذي يفعله بلا انقطاع كان بحيث أن بعد بعض جمع جملة كثيرة من الغابات والمنتقعات عدمت، وأن في محل الدويرتين القديميتين اللتين كانتا فقط مسكن النوع الإنساني تصدى فوق الماء متاريس القلعة المهددة، ومن يوم تأسيس القلعة [٥١/١و] أراد القيصر إسراع الأشغال، فقسم النظر بين ستة أشخاص، فأخذ لنفسه قسمًا، وفوض الأخر إلى الكبار الموجودين بقربه خصوصًا إلى ناريشكين وتروبتسكي وزوتوف وغولوفكين وميتشيكوف، ولتذكار هذا الترتيب سميت الأبراج باسم النظار مبتدئة بالبرج الذي على يمين باب ماربطرس الذي سمي باسم «القيصر».

وفي مدة الأشغال أشهر بطرس عيد اسمه ٢٩ حزيران، وعمل مينيتشيكوف للقيصر وللكبار وليمة مفتخرة في المحل الذي بناه في البرج المسمى باسمه، وما كان الباعث لبطرس على بناء هذه المدينة حسن وضعها فقط، بل صلاحية الموضع بالسهولة التامة لدننما تدخل وتخرج وترسي، وبطرس الذي علم بالتجربة بسبب خيبة محاصرة أزوف(١) سنة ١٦٩٥ كيف

(٢) لمزيد من التفاصيل عن حملتا آزوف انظر: بوغانوف، حياة بطرس الأكبر، ترجمة : خيري الضامن، دار التقدم، موسكو، ١٩٩٠، ص ص ٣٨-٧٣.

نفع دننما في حرب البحر عرف من أول وهلة أن فم النيڤا يلزم أن يكون للروسيا مفيدًا، وما زال مسدودًا، وما استراح حتى كمل قصده، وذلك أنه لما أحدر من النيفا إلى البحر اشتاق أن يعرف عرفانا كاملًا جريان هذا النهر العظيم، وفي واحدة من سفراته رأى بغتة على فم النيڤا عدة جزائر تصلح بغاية اللياقة أن تكون ميناء للمراكب التجارية، وهذه الجزائر كانت مسكن فقراء صيادين، وكانت لطيفة المنظر، وتصور بنفسها مفتاح النهر، وفي الدخول في هذا الموضع يلزم الروس أن تتحصن بالضرورة، وبطرس فهم بالسرعة كل منافع وضع هذه الجزائر بغاية المناسبة بفكرة الحاد، ونظرة الثاقب.

فعزم أن يبني ذلك مدينة، وأخذ في الأشغال بعزمه الماضي غير المنتظر عقد الصلح وغير مبال [١/٥١ظ] بصعوبة فيضان المياه، وبينما خبط الفوس وصياح الشغالة يرن في هذه المواضع الساكتة، ما سكت السويد على نظر هذا، بل جردوا عساكر ١٢٠٠ من ڤيبورغ أوائل تموز تحت نظارة الجنرال كزونيورت الذي كان بعينه في سنة ١٧٠٢ في حرب مع أبركسين لهدم الأبنية المبتدأة، لكن القيصر لما علم الخطر في الوقت خرج من بتر بورغ مع أورطتين من الخفر، وأربعة أرط من العسكر، وهذه العساكر لما لاحظت في ٩ تموز العدو من الساحل الآخر من نهر سيسترا، عبرت عبورًا صعبًا بمرأى منه، وهجمت عليه بشدة، والسويد مع متانة ملجأهم في أشجار غُلب غَلبوا واضطروا إلى الرجوع إلى ڤيبورغ بعدما عدموا كثيرًا من أمتعتهم ومدافعهم.

وبواسطة زيادة الشغالة المتكاثرة كل يوم في بتر بورغ، فرغ بناء القلعة في آخر الشهر الرابع، وفي الداخل في طول الجزيرة فحر خندق ليلًا يتعرض لفقد الماء خصوصًا في حالة الحصار لو فرض، وعلى ساحلي هذا الخندق بنيت أربعة صفوف من البيوت مسقفة على عادة الفينوانيين بالعشب أو بقشر شجر القان، وعلى الشط الجنوبي رفعت كنيسة من الخشب نقشها يحكى الرخام الأصفر باسم الحواري ماربطرس، والحواري ماربولص، وهذه الكنسية كان لها ثلاثة أهلة في أعلاها، وأيام الأحد وأيام الأعياد يرفعون لهب المراكب.

وفي أحد هذه الأهلة معلق ناقوس يضربون به في ساعات الليل والنهار، وفي السَاحل الآخر من النهر أمام باب الكنيسة الشمالي بيت صغير لحاكم القلعة من [١/٥٢و] دور واحد وبقربه بيوت ضباط الخفر، وفي قبلي الكنيسة في

محل بيت حاكم القلعة كان بيت كبير لعسكر الخفر مع فسحة أمامه، وهذه الفسحة كانت تسمى «محل الرقص» بسبب حصان خشب بظهر حاد، وصاري محفوف بأوتاد مذبذبة، وعلى الحصان يوضع العسكري المذنب ذنبًا عظيمًا مفرشحًا وعلى الصاري واقفًا، وهذه الجرسة كانت موافقة لعادة ذلك الوقت، وبقرب بيت العسكر بيت خشب منقوش بكيفية نقش الكنيسة عين أن يكون الترسخانة، وفي البيوت الأخر كان مسكن قسس كنيسة ماربطرس وبولس وكنيسة اللوتيريانيين ونوابهم وكونسلارية «الخفر ومخازن الأقوات»، وفي برج منيتشيكوف بيت لطيف صغير كان معدًا للعقاقير والأدوية الميرية، وبابه الموضوع في الجدار بين برج القيصر وبرج منتيشيكوف يوصل إلى قنطرة خشب يمكن رفعها وإلى فرجة بين القلعة وجزيرة كويفي التي صارت جزيرة بتربورغ، وكل يوم من وقت أن تدق الطرنبيطة لإيقاظ العسكر حتى تدق لانصرافهم بندير القيصر تتهادى على برجه، وأيام الأعياد والمواسم العظيمة ينشر العلم الذي بصورة نسر برأسين ماسكًا بمخلبه، وبمنقاره على أربعة بحور، البحر الأبيض، والبحر الأسود، وبحر كيلان، وبحر بلطيق، ونشر البندير أو طيها علامة على ابتداء أشغال المدينة أو تمامها وطلق مدفع يدل على هاتين الحالتين.

وفي الساعة الحادية عشر يطلق مدفع للغداء، وحيث كانت جزيرة اينيساري محفوفة بحيطان قوية، أراد القيصر أن يكون قريبا من القلعة بقدر الإمكان ليمتحن الأشغال غالبًا، فبنى [٥٢/ظ] في جزيرة بتر بورغ بقرب ساحل النيفا الكبير بنحو مئتي باع، ممن برجه في محل كان في حكم السويد دويرة صياد بيتًا من خشب عرضه ثمانية أبواع وسمكه ثلاثة، ومجدد الروسيا لما كان عدوا للترفه والتزايد أعطى لنفسه مثل القناعة، وسكن في أوضتين بينهما مدخل ومطبخ، والكل مدهون بلون أحمر مخطط بالأبيض على ذوق الهولانداريين، لأجل أن يظهر حيطانًا من الآجر المكشوف، وفي الداخل مزين بقماش غليظ ملون بالبياض، وأثاث البيت موافق لبساطته، وفي وسط السقف يرى هاون، وفي كل ركن بنبة جاهزة للطلق، وهذه الأشياء الثلاثة كانت مصنوعة من الخشب المصور.

وهذا كان أول قصر لبطرس الكبير في بتر بورغ، وما كان في ذلك المسكن الوضيع إلا جليلًا ورفيعًا، وبنى مينيتشيكوف محب الترفه والفخر أمام دويرة القصر بيتًا من الخشب أيضًا، لكنه واسع، وفيه تُشهر الأعياد ويلاقي القيصر بسبب صغر بيته، وهذان البيتان مع الخيام والأخصاص المبنية هنا وهناك بلا نظام لأجل كن الشغالين في جزيرة بتر بورغ مدة الشتاء، نصبت كل المدينة المولودة في سنة ١٧٠٣ وبطرس لما رمى أساس مدينته، ورأى إمكان تحصيل دننما، سافر أول تشرين أول إلى «لادينوي پوله» الذي سماها منجرة أولونيتز، وابتدأ فيها ببناء ٦ فرقيطات و٩ قبقات[1]، ثم رجع إلى بتر بورغ في الفرقيطة المسماة «ايتاندار» التي أنزلها من المنجرة نفسها والمصحوبة بست قنج جديدة أيضًا، وفي مسافة الطريق [٥٣/و] بسبب الريح العاصف الشديد بتخت الفرقيطة في الرمل، وحصل فيها عوار أصلح عند وصولها، وهذه أول مرة أن مركب حرب من هذا الجنس تقوم على ماء النيڤا وتعمر على سواحله، والقلق الذي كان يجده القيصر لتكميل دننما في بحر بلطيق بعثه في تلك السنة بعينها سنة ١٧٠٣ أن ينشئ في خط نوڤغورد، وفي ملتقى نهر كياس منجرة جديدة خرج فيها من الخريف ٣ قبقات، وإلى مبلغ ٣٠٠ مركب مختلفة وغراب للنقل، وأكثرها بناها الأوسطا جبريل مينتشيكوف، الذي تعلم السفانة مع القيصر في هولاند، وقلة الملاحين عطل بطرس، لكنه اجتث هذا العائق بأن دعى إلى خدمته ضباطًا من هولاند ومن البندقية، ومن بلاد مسكونة بأمم أصلهم من الصقلب خصوصًا من سواحل البندقية.

ثم أخذ لتكميل ذلك عدة من النواتية الغرباء الموجودين في السفن الواردة إلى أرخانكيل، ولما علم القيصر بعد رجوعه إلى بتر بورغ بسفر دننما القبطان «نومير» كالتي كانت مدة الصيف في القرصنة أمام فم النيڤا إلى ڤيبورغ لتقضي فيها الشتاء، سافر مع أن خور الفينلاد ابتدأ في التجلد في قنجة واحدة إلى جزيرة ريتساري الضيقة الطويلة المعروفة بين الروس من زمان طويل باسم كوتلين، والموضوعة على ٣٠ ڤرست من بتر بورغ وسبر الجزيرة وقاس مشعبها.

---

(١) ضرب عليها المصنف.

وبعدما امتحنها بإمعان النظر عزم على تحصينها، وذلك أنه لما رمى أساس مدينة يلزم أن يجعلها في ملجأ من فتكات الأعداء الذين هم[٥٣/ظ] أيضًا ملاك البحر، ورجع القيصر إلى بتر بورغ وقلبه مشغول بهذا الفكر، وكان خلى في الجزيرة منيشكوف مع أربع أورط، وقسم على الأخر مساكن الشتاء في الأخطاط المجاورة، وسافر إلى موسكو بعدما حصن أسوار القلعة بعدة ٣٠٠ مدفع من النَّحاس، والسبع معادن كلها تقريبًا مغتنمة من السويد، وقبل سفر القيصر إلى موسكو أبطل عادة مستعملة في الروسيا منذ عدة قرون، وذلك السجود للقيصر كلما يلاقي، وهذه العادة التي يمكن أن أصلها من وقت حكم التاتار كانت مكروهة جدًا لبطرس خصوصًا في وسط الوحل، والمنتقعات، فلذلك حرَّج على فعلها، والعامة المتعودون كل الأزمان على هذه التحية لشخص الملك شق عليهم الترك، وكثير من الناس إذا رأوا القيصر يخرون سجدًا بلا إرادة، وتأبى الطباع على الناقل، وهذا ألجأ القيصر إلى التهديد والعقاب الأليم لكل من يتجاسر من الآن وما بعد أن يفتأت عليه، ويخالف ما تقدم إليه، وبعد سفر القيصر ببعض أيام، وصلت بتر بورغ أول مرة بعد تأسيسها سفينة من هولاند، رئيس هذه السفينة كان يجيئ كل سنة إلى خور فينلاد، حيث كان السويد حكام البلاد يقطع أخشاب العمارة على سواحل نهر سيستره حيث يوجد الآن «سيستررورسك» أو«سيستربيك»، ووصل لهذا الغرض بعد وضع أساس قلعة بتر بورغ بأسبوعين أو ثلاثة، ويتبعه اثنى عشر مركبًا تجارية، لكن لما علم الأخبار المعروفة من خصوص «دننما» القبطان نوميرس التي عاقت هذه المراكب عزم أن يروح لمقابلة القيصر لالتماس اذنه في الاستمرار على قطع الخشب، لكن لَمّا وصل كان القيصر وحاكم البلد غائبين[٥٤/و] منذ أيام، وراح يام وكوريا اللتين فتحها شيريميتوف ولم يقدر أن يرى القيصر، لكن لما سمع برجوع الحاكم جوزي ليس فقط بالإذن له في قطع الشجر من المحل المذكور، بل بحثه على أن يجلب إلى بتر بورغ السفن الموسوقة بالبضائع، والرئيس لما انسحر بهذا القبول لحق سفنه، وأراد أن يدخل النيڤا، لكن لما لم يقدر أن ينال إذن نوميرس الذي يخاف أن الروس تتنبه لتسليح سفن هولاند وتتقوى بها عليه، قال له إن يقضي الليل مع ستة من سفنه في خلال دننما السويد، ويصل إلى نهر سيستره على السواحل التي فيها

بعض عراضى روس، من وقت هزيمة الجنرال كروينورت.

ووصلت واحدة من هذه السفن إلى بتر بورغ في تشرين الثاني لما وجدت بغتة بعيدة من دننما نوميرس، وكان النيڤا والخور عاريين إذ ذاك من الجليد، والسفينة موسوقة ملحًا وخمرًا، فقابل منيشيكوف الذي يفهم مقاصد سيده السديدة و يحصلها بالهمة العتيدة، الرئيس بغاية البشر والبشاشة، ونهاية الطلاقة والهشاشة، ودعاه إلى طعامه المفتخر وأهدى له خمسمائة مجر، وأعطى لكل نوتي ثلثمائة قطعة، واشترى كل وسق السفينة ثم وعد أن يهدي لرئيس المركب الثانية التي تجيء بتر بورغ ثلاث مئة مجر، ولرئيس الثالثة مئة وخمسين، ومع توارد الأشغال والدواعي المقتضية ليس فقط لا لتفات القيصر، بل لحضوره أيضًا كان محط نظره تحصين بتر بورغ بحيث يظهر أنه صرف فيه كل اعتنائه واجتهاده أمرًا مشافهة إن كان حاضرًا، وبالكتابة إن كان غائبًا:

اعلموا أني لكم حافظ شاهدًا ما كنت أو غائبا

وبينما كان يخترع الأشياء النَّافعة لإصلاح داخل المملكة كان [٥٤٧ظ] يربط التعلقات الخارجية، ويستعد لحرب تكون قبل الربيع وينزل سفنًا وغلايين من كل نوع إلى نهر دون، وبمجرد ما وصل من موسكو إلى فورنيج أرسل إلى مينشيكوف، أن يحصن جزيرة كوتلين، وهذا القصد إذا فعل قبلي الجزيرة، خصوصًا من جهة المشعب لا يخاف من تقدم سفن الأعداء إلى بتر بورغ ومنيشيكوف لما وصله الأمر سارع إلى الجزيرة وبنى فيها لتصحينها قلعة خارجة عن العادة، قليلة النظير، وكل المواد اللازمة للعمارة وصلت من بتر بورغ على الجليد بحسب أوامر الحاكم، والأشغال في وقت واحد تقدمت وحصلت بالاجتهاد بعينه والسرعة بعينها في الصيف بحيث أنه عن قريب ارتفع فوق قفر جليد خور فينلاند على لسان الأرض الذي وصفناه دائرة من الخشب أو حصن من ثلاثة أدوار كديدبان مهول مهدد حارس على مدخل مشعب النيڤا، وأساس هذا الحصن صناديق من الخشب مملوءة بحجارة وملقاة في قعر الماء، ومع صعوبة البرد المتتابع كان في هذا الشغل عدة آلاف من الشغالة، بعضهم في البناء، وبعضهم في نقل المواد، وهلك ثمانية آلاف

فرس بعدم الزاد وبالعنت، وهلك أيضًا كثير من الناس، وهذا كان قربانًا لازمًا لحفظ بترو بورغ التي حققت فتوحات بطرس المستقبلة في الدننما وسواحل بلطيق، وقبل تحلل النيڤا كملت الأجزاء الأصلية من الحصن والقصبة المولودة كانت في حصن من جهة البحر، وصارت السكان كل يوم تزيد زيادة على الروس، كالتجار الآتين من نوڤغورد بالغرباء من الاستونيا والليتونيا، وحتى من السويد المساكين الذين [٥٥/و] حرموا بواسطة الحرب من المسكن ومن الصناع والأسطاوات والنواتية الذين جاؤوا أفواجًا بعيالهم، وتركوا أوطانهم، والتاتار والكلموك المدعوون من بعيد لأشغال القلعة بقوا بكثرة في المدينة واكتسبوا زيادة على القوت ما قدروا به على بناء البيوت، وبهذه المثابة عمرت المدينة وصارت منيعة حصينة، وفرغت المنجرة في أقل من سنة، وهذه المنجرة ما كانت مشتملة في ذلك الوقت إلا على عشرة خطوط، والخط المحل الذي فيه تبنى السفنية، وعند رجوع القيصر من موسكوا شاهد عدم انتظام وضع البيوت، فأمر أن تجعل الحارات معتدلة، وفي هذا الوقت ما أوسع حارات المدينة وأعدلها وألطفها وأجملها، لم تزل ساحرة لعيون النظار، خصوصًا سياح الأقطار، وأصحاب الأسفار الذين تروق أعينهم هذه الآثار.

وفي سنة ١٧٠٦ فاض النيڤا، ومع الفيضان ما مكث إلا ثلاث ساعات سبب الخراب بسبب أن البيوت كانت حينئذ واطية، فطغى عليها الماء، فصارت جارية لا تحمل السكان، ولم يجد الأهالي عاصمًا من الماء إلا الركوب في السفن، كما يتداوى شارب الخمر بالخمر، ومع وقوع الحريقة التي اجتثت عدة بيوت عظيمة من الأساس سنة ١٧٠٧، كان وجود القيصر كالجود، فأطفأ النار حتى صارت بردًا وسلامًا، وتلافى التلف الذي تسامى، وفي سنة ١٧٠٨، يعني بعد خمس سنين من تأسيس المدينة استحقت بترو بورغ أن تسمى مدينة أوربية، واشتغل السكان الذين أغلبهم غرباء بأجور المعاش وغيره مثل غيرهم:

واتخذ النَّاس كلهم سكنا ومثل الأرض كلها دارا

ولما رأى القيصر نتيجة غراسة، وقوة بأسه، اشتهى أن يرى ذلك لأناسه، [٥٥/ظ] فعزم أقاربه من موسقوا لرؤية مدينته الجديدة، عروس المدن التي ما رأوها بعد، وإنما سمعوا عنها، وليس الخبر كالعيان:

ولكن للعيان لطيف معنى به سأل المعاينة الكليم

وقد حصل في موسقوا إذ ذاك بعض تنقلات أوربية وتغيرات تمدنية، ولكن العوائد القديمة باقية إلى الآن عمومًا، وذهب القيصر للقاء عائلته الملكية من مسافة ٨ فرست، ودخل معهم بموكب عظيم في شليسيلبورغ، ومن هناك بعد خمسة أيام نزل القيصر معهم في السُفن التي جاؤوا فيها والمزينة بالبنديرات، وتوجهوا إلى بتربورغ ولاقاهم قبطان باشا ابركسين من مسافة ٤ فرست في زورق، وسلم عليهم بطلق المدافع، وعند وصول هؤلاء الفخام والكبرا العظام إلى بتربورغ، سلمت عليهم القلعة بالمدافع، ونزلوا بيت مينيشيكوف، وفرجهم القيصر على المدينة، وما فيها من الأبنية المتينة، وقادهم إلى كرونسلوت ثلاثة أيام، ومع فرح القيصر بحضورهم أشد الفرح، واعتنائه بحظهم وسرورهم ما عاقت الأشغال ولا فترت الأعمال، بل زادت الفتكات في نواحي البلاد، وحامت العقبان الكواسر على بلاد الفينلاد، فأرسل القيصر من كرونسلوت إلى بورغو على ساحل خورفينلاد القونت بوتزيس فدمَروها، ورجع بالظفر مع وجود دننما السويد في فيبورغ، ثم رجع ذلك القونت المذكور لتخريب قرى السويد التي على جزائر بيريسوفيا وعلى نواحي فيبورغ، فجعجع بها، لكن السويد مع هذا كانوا دائمًا عازمين على التألب والتجيش لأخذ بتر بورغ والانتقام من أعدائهم القاهرين، فأرسل شارل ١٢ سنة ١٧٠٧ الجنرال لوبيكر بعسكر جرار ١٤٠٠٠، [٥٦/١] ولما علم بطرس ترك مدينته الجديدة وذهبت عائلته إلى موسقو، وصار الناس بين الرجاء والخوف، وكثير من شون الغلال نقل إلى القلعة، وتقدم لوبيكر بوطأة عظيمة وحملة جسيمة وقطع العقبات واقتحم الصعوبات حتى تملك من ساحل النيا الشمالي، لكن بسعد المدينة غلط لوبيكر غلطًا عظيمًا أدى إلى هلاك جيشه حيث دخل في بلاد اينغرى المقفرة المغطاة بالغابات والمنتقعات ظانًا أن يجد القوت الكافي لعسكره، فخاب ظنه وعاد وبال غلطه عليه «خطأ الطبيب إصابة الأقدار»، ومع أنه غلب أولًا عدوه فقد وجد عدوًا قاهرًا لا يقاتل:

وأنفس خطيك الذي لا تناله وأنكى عدويك الذي لا تقاتله

وهو البرد والجوع الخارج عن العادة، المتعدي حتى إلى الضباط الذين ذبحوا الخيول وأكلوها، وهذا الجنرال لم يتقدم إلى بتر بورغ، بل توغل في بلاد اينغري المسكونة ليجد فيها قوت العسكر، لكن ما كان العود أحمد، لأن القوزاق بأمر ابركسين حرقوا هذه القرى ليسدوا على العدو طريق الخلاص، ففرّ ولات حين مناص، وأخذ الروس يقتلون السويد ويقولون لنار غضبهم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟ فكانت هذه المصيبة لهم فائدة قشيبة، بذا قضت الأيام ما بين أهلها، مصائب قوم عند قوم فوائد، ولم يكن ملجأ السويد إلا البحر الغضبان المتماوج، كير الصواعق، ففرّ من فرّ، واختار صاعقة البحار ولا صاعقة العدو الأمرّ، لكن اختلاف الرياح أذن للروس بالإرباح، وعاق السويد عن ركوب البحر، وأرسل ابركسين خلفهم، ولحقت عساكره أورطتين من السويد لما نزلوا السفن فاستأصلوها[1]:

رماني الدهر بالأَزراء حتَّى	فؤادي في غشاءٍ من نبالِ
فكنت إذا أصابتني سهامٌ	تكسَّرت النِّصال على النِّصالِ

وهكذا فرغت غزوة لوبيكر المهولة على بتر بورغ أولًا ثم آخرًا على السويد، فعاد كيدهم في نحرهم، وباؤوا بمكرهم، ومع أنهم أرهبوا المدينة وأضروا بها على الحقيقة، فقد جعلوها في حماية منهم حيث أيسوا من التطلع لها، ولما أحدثت هذه الحرب خراب نواحي المدينة وإحراقها، أراد القيصر أن يتلافى التلف، ويعمر هذه النواحي بالروس الأصلية، فاستحسن أن يقسم الأراضي، فأقطع لزوجته خمس ضياع، ولشاهزاده ولده الكسي بعض ضياع، وكذلك لشاهزاده أخته نتاليا، وأيضًا أقطع بعض الناس، وكان أكثر الناس إقطاعًا مينيشيكوف، فإنه أخذ جزءًا من أحد عشر جزءًا من بلاد اينغرى، وقسمت الروسيا أول مرة إلى ولايات ١٨ كانون الأول سنة ١٧٠٨، وجعلت بتر بورغ رأس ولاية اينغرى المشتملة على ٣٢ مدينة.

وفي سنة ١٧٠٩، لما تمكن بطرس من بلاد اينغرى أمر أن تسكن الوزراء والكبراء في بتربورغ، ومن ذلك الوقت صارت تخت المملكة، وسفرا وهأخبروا

(١) الأبيات منسوبة لأبي الطيب المتنبي، انظر الديوان، ص٢٥٣.

أنه بنى مدينة على البحر كل يوم تزيد، ورغبوا بكل وجه السياحين والتجار، وعقدوا التجارة مع فرانسا وأعلموا إيطاليا أنها إذا توالت سفنها التجارية إلى بتربورغ لا تدفع إلا نصف المكس، وأراد أن يسلك سبيلًا للتجارة داخل المملكة، وأرسل لكشف الطرق البحرية لكن ما حصل مانع فترك، وفي سنة ١٧٠٩، ٣٠ تشرين الثاني أشهر عيد نشان ماراندريا، وعملت ضيافة كبيرة عند مينيشيكوف، حضرها الوزراء والكبراء والضباط البحرية وغيرهم، وفي الليل عملت حريقة عجيبة الشكل، صُورت فيها صورة مناسبة لوقائع السنة، وفي الآخر حمالة كبيرة معلق فيها [٥٧/و] هذا النشان، وهذا اللعب سَرَ الناظرين وأعجبهم حيث إن أغلبهم ما رأى هذا النوع البديع، إذ من المعلوم أن الحريقة من الأشياء التي ما رؤيت قبل بطرس في الروسيا.

وفي ٦ كانون الأول في الترسانة بمرأى محفل عظيم من المتفرجين ابتدأ بيده بناء بارجة وسماها «پولتافا» بأربعة وعشرين مدفعًا.

وفي سنة ١٧١٠ أرسل هذا العنقاء ابركسين لحصار فيبورغ مرة ثانية؛ لأن المرة الأولى الواقعة في سنة ١٧٠٦ ما أنتجت، وذلك أن الجنرال لوبيكر لما لم يتفكر أن الروس يتعدون الحدود إلى محاصرة محله، توغل بعساكره في الفينلاد في المساكن الأحاسن، فاغتنم الروسيا هذه الفرصة وحاصروا المدينة، وكان مع ابركسين ٥٠٠٠ رجل، و١٠ مدافع بثقل ١٢ و١٣ هوان، وذهب على الجليد ١٥ آذار، ووصل إلى القلعة وتمكن من برج بواسطته قطع على المحاصرين كل وسائط الذهاب والتردد إلى داخل الفينلاد، وأطلقوا عليهم النيران، وعسكوا عليهم الأفكار حتى رأوا الأياس، لكن المحاصرين كانوا مضطرين إلى المدد من بترغ، وما كان معهم بعد ذلك إلا زاد ثلاثة أيام، والجليد لا يمكن العبور عليه في ذلك الوقت الذي هو وقت التحلل، فما أشدَ فرح أبركسين حين رأى ٩ أيار المدد الذي حمل له الزاد والمدافع والجيوش، وهذا المدد من أعجب ما يحفظ في التاريخ، ويدل على التمدن النير الذي لمع في الروسيا بواسطة ركن كوكبها الثاقب، وجعلها بين أخواتها في أعلى المراتب، وذلك أن القيصر لما علم احتياج التجريدة التي أرسلها للحصار أرسل في وقت تحلل النيفا ٢٥ نيسان الدننما التي قضت الشتا في بتربورغ، وأرسل

مراكب قلعية تحت إدارة كرويس، ومراكب طويلة تحت إدارة بوتزي، وفي هذه السفن ١٠٠,٠٠، فتقدم في رأس الدننما ٧ فارقيطات كل واحدة فيها ٢٤ مدفعًا، وفي وسطها بندير[٥٧/ظ] كرويس، لكن الجليد عاق عبور الدننما وظهر استحالة الوصول إلى فيبورغ، وبطرس طلاع الثنايا، ومقتحم المنايا دائمًا يستسهل الصعب ويستهون الخطب، تفكر في استنباط طريق لإزالة وعر هذه الطريق بعد طول المعافرة وشدة المعاقرة، وا نحط الأمر على رأي القيصر أن يتقدم السفن صادمة للجليد، وكان في الرأس فارقيطة بأربعة وعشرين مدفعًا ومنجة بالبومب، ونشرت هاتان السفينتان الشِّراع وعامتا في جبال من جليد بالاصطدام، وفتحتا فيه طريق للباقي، فانظر لحرب هذا الجليد مع الجليد، ووصول هذا المدد غير الأمر وقوى الحصار، لكن القيصر أخذه القلق وذهب بنفسه في ١١ حزيران، ووصل في وقت ما عرف حاكم القلعة أنه لا يقدر على المقاومة، ووصول القيصر أعجل الأمر، وفصل النزاع، ودخلت عساكر بريا وبراژانسكي القلعة ظافرين، وأعطى لاپركسين جزاءً على ذلك نشان ماراندريا.

قلت: وقد مررت عند رجوعي من هلزن فورس على بورغو، وهي مدينة حسنة، يلوح فيها آثار العمارة، وبها سوق وتجار ومخازن ومضايف، وعلى فيبورغ وهي مدينة حصينة وقلعتها منيعة وابنيتها بديعة تشابه مباني بتربورغ، وبنحو ميل منها حديقة كبيرة تسمى «مون ريوس» للأمير نقولة، وقد قضيت في هذه الحديقة بعض ساعات أنيسة، ونظرت ما فيها من المصانع النفيسة، فمن ذلك البرج الظريف على خندق لطيف، ومن ذلك الصخور العظيمة التي فيها المغارات، وهناك حنفية ماء باردة ومنارة عالية تنظر منها المدينة وعمود منصوب على أعلى نصبه الأمير نقولة أثرًا لبعض بلدياته[٥٨/و] الفرنساوية الذين جاؤوا الروسيا، وحماهم القيصر اسكندر، وأكرم مثواهم، وفي المدنية تل من الصخر عالٍ صعدته، ورأيت فيه حجرًا كبيرًا منقوش على سطحه« كلمة لاتينية لابد أن تكتب بخط اليد »، يعني بطرس الأول؛ لأن بطرس لما وصل صعد على هذا الحجر ونصب خيمته، وعندما أخذ القلعة نقش اسمه، وكلا المدينتين الآن في حكم الروس، لأنهم دائمًا في التقدم.

وفي ڤيبورغ كحك مشهور باسمها يجلبه المسافرون إلى بتربورغ، لذيذ الطعم، وبعض الخبَازين في بتربورغ يقلده، ولكن شتان، فحق أن يقال له: «لقد حكيت ولكن فاتك الشَّنب».

وبنواحي ڤيبورغ فوَارة ايمترا، وهي فوَارة عظيمة يتصاعد فيها الماء بقوة عظيمة، وينحدر الماء من أعلى الصخور من محل متسع كالبركة إلى مضيق بين الصخور، لم تزل أعجوبة للمسافرين ونزهة للناظرين، وقد رأيتها فكانت صيقلاً لبصري وقرة لنظري، وبالجملة ففي الفينلاد ينابيع وفوارات رأيت بعضها، ولكن هذه الأحسن والأعظم، و«كل الصيد في جوف الفرا» ومن قوة الماء تتصور أحجار بصورٍ مختلفة، أحجار تبيعها الصغار مع جدتها كانتيكة المصريين فيشتريها السياحون، وربما هادوا بها، والتهادي قد يكون بالأشياء التافهة لغرابتها وندرتها، ونزلت هناك من سلالم خشب عدتها خمسون درجة، ومشيت بقرب الصخر حول درابزي، ووصلت في الآخر إلى كشك لطيف، وهناك مضيفة جديدة، ذكر لي صاحبها أنها أنشئت من مدة شهر ونصف، وهناك في الأعلى قصر صغير ومجلس، وكثير من الناس الزائرين يكتبون أسماءهم في الكشكات وتاريخ زيارتهم، وقد فعلت مثلهم.

وعلى ذكر الفوارات، فنذكر الفوارات الموجودة في بترغوف بقرب بتربورغ، يسكن فيه القيصر وعائلته في الصيف قبل الذهاب إلى «تسارسكي سلو»، وهو مشتمل على عيون كثيرة وينابيع جميلة، بعضها يخرج من أفواه الأسود المصورة وبعضها من غير ذلك، وهناك في جميع النواحي من بستانه الكبير فساقي كبيرة تجري فيها العيون، وأعلى الفوارات فوراة سمسمون أم القصر القيصري، يرتفع فيها الماء جدًا، ويقال إنه كان يرتفع في أيام القيصرة كترين الثانية إلى حذا سقف القصر.

وفي أول تموز ذهبت هناك، وتفرجت على الوقدة التي عملت لإشهار فرح ولادة القيصرة، فما أحسنها من وقدة بين سطور الأشجار وبعضها في خلال العيون، بحيث أن الماء يجري فوق القناديل الموقودة.

وفي ٢٧ حزيران، اليوم الذي فيه أخذت پولتاڤا[1]، أديت مراسم العبادة والشكر للّه، وبعد ذلك نشرت في الميدان البيارق المأخوذة من فيبورغ، وبعد ذلك أطلقت المدافع [٥٨/ظ] من القلعة والسفن، وفي المساء عُملت على النيڤا حريقة، وامتد العيد لما بعد نصف الليل، وأمر أن يُشهر هذا العيد كل عام.

وفي ٣٠ حزيران زحف الرئيس بروس على كيكسهولهم، وأخذها ٨ أيلول، وبفتحها أطاعت كل مملكة كاريلي، فإقامة القيصر في بتر بورغ في سنة ١٧١٠ ما كانت إلا أعيادًا:

أولًا : بسبب تضاعف الفتوحات هذه السنة، فمن أول كانون الثاني قبل أخذ فيبورغ أخذ الروس البنيك، وفي ١٠ حزيران فتح شريميتيف ريڤا، وفي ٨ آب خضعت قلعة دوناموند، وكذلك پيرنو في ١٥، وفي ١٣ أيلول كان حصار ارينسبورغ وفي ٢٩ تملك الجنرال باور من ريفال، وعلى هذا المنوال أطاعت كل بلاد استونيا وليفونيا.

قلت: وعند ذهابي إلى بلاد الفينلاد في سفينة البخار، أرسيت على ريفال ومكثت فيها نحو أسبوع، وهي بلد قديمة وبيوتها كالحصون بناها الشجعان في قديم الزمان، وبها كنيسة لوتيريانية قديمة جدًا، حتى إنها أشرفت على الخراب، لكن العمارة فيها ومنارتها عالية جدًا، صعدتها ونظرات فيها المدينة والمنظر لطيف.

وفي هذه المدينة حديقة كبيرة للتفسح تسمى «كاترين دال»، وفي هذه الحديقة بيت بناه بطرس الكبير، ورأيت فيه بعض آثاره من سفر وفرش إلى غير ذلك، وهناك قصر كبير بنته كاترين الثانية، وفي وقت عبوري كان مُعدًا لسكنى شاه زادة قسطنطين وأخيه نقولة، ولدي القيصر الحالي.

ومن عجائب هذه المدينة التي ترغب السياحون في رؤيتها جسد الأمير دكروا، كان في زمن بطرس الكبير وخان، فغضب عليه بطرس وأمر بعدم

---

(١) **Poltava** تقع في الجنوب الغربي من مدينة خركوف **Kharkov** من إقليم أوكرانيا، أو إلى الجنوب الشرقي من كييف **Kiev**. انظر : محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، هامش ١، ص ٣١٣.

دفنه فوضع في سرداب في الكنيسة لا في القبر، ثم وجد من نحو ثلاثين سنة [٥٩/و] متحجرًا كالمومياء، فأبقي عبرة للناظرين، وفُرجه للمسافرين، ووُضع في دهليز الكنيسة، وقد رأيته وجسده ناشف كالجلد ولونه باهت أصفر.

وثانيًا: بسبب تزوج أمير كورلاند بنت أخت القيصر شاهزاده حنا، وذلك أن ١٤ حزيران جاءت سفراء لخطبتها، والقيصر الذي يحب التعلق بباقي الدول، كان رتب ذلك مع ملك البروسيا عم الأمير، وذلك أن بطرس لما أخذ پولتافا وهزم عساكر شرل ١٢ ، ما قنع بغلبة العدو خارج بلاده، بل أراد أن يهجم عليه في نفس بلاده ليتم له ما يريد من إراحة البلاد وصلح العباد، فذهب بهذا الصدد إلى البروسيا مارًا على بلاد اللين، وطلب من الملك فريدريك المعاونة على السويد، لكن الملك لما لم ير في تلك المعاونة نفعًا لبلاده، حاول ومع ذلك ما منع مرور عسكر الروس على بلاده للهجوم على السويد، وعقد المحبة مع بطرس، وأكدها بعده أن يزوج ابن أخيه لبنت أخت القيصر، ولهذا السبب أعطى بطرس ولاية كورلاند للأمير متوارثة، ولما رجع إلى الروسيا مر على مدينة كورلاند، ولما وصل الأمير بنفسه إلى ريفا أهدى له منيشيكوف حجرًا أزرقًا شفافًا عجيبًا ثمنه ٥٠٠٠٠ مجر وحصانًا تركيا، وفراء ثمينة وتحفًا أخرى، وألفي برميل دقيق، واضطر الأمير بسبب الوباء الذي خرَّب بلاد ليفونيا واستونيا أن يعمل كرنتينة قبل نارڤا.

وأمر القيصر بإعداد اللوازم لإقامته، وأرسل له خيميتين مزينتين، و ٤٠٠ فارس لحفظه و٥٠ لحراسة الموضع الذي هو فيه، ووصله هناك أول مكتوب من خطيبته، وفي ١٥ آب دخل بتر بورغ في موكب عظيم، وقدمه بطرس إلى خطيبته وأمها وصار يراهم كل يوم، وبهذه الفرصة زادت [٥٩/ظ] الأفراح، ففي ٢٦ آب ذهب أهل القصر إلى شليسبورغ لإشهار يوم القلعة.

وفي ٩ تشرين الأول عمل منيشيكوف ليلة رقص، وفي ١٠ عمل مثله الجنرال ابركسين، وفي ١١ عمل مثله الأمير تشاركاسكي، ثم عمل قوم آخر في الأيام التابعة، وفي الآخر عمل منيشكوف ليلة رقص ثانية، ودام

الرقص إلى الصبح، ومن ١٧ إلى ٢٣ صمم القيصر على رؤية كيكسهولهم، ولم تلهه هذه الحظوظ عن أفكاره، ولم تغتره الأفراح عن السعي إلى بلوغ أوطاره، وبعد أسبوع من رجوعه في ٣١ تشرين الأول أشهر عقد الزواج بغاية الفخر والطنطنة، وتفصيل ذلك طويل الشرح، وأمر بإعداد اللوازم المعتبرة، هذا مع أنه كان يميل للتقشف والبساطة، وبنى بطرس في هذه السنة ١٧١٠، في محل يسمى فيكتوري - يعني النصر - دير اسكندر نيفسكي، وهذا الدير كبير جدًا، وهو في آخر الشارع المسمى نيفسكي بروسبكت.

وفي عيد اسم إسكندر كل الناس تذهب لزيارة ذلك الدير أفواجًا أفواجًا، وزيادة على القصور والأبنية في المدينة، أحدث القيصر قصورًا خارجها، فأول ذلك قصر كاتيرينغوف باسم القيصرة وأهداه لها، وهناك آثار لبطرس وكتب وساعة، وغير ذلك، كل ذلك محفوظ إبقاء لأثر هذا الرجل الفريد، وكاتيرينغوف الآن من أحسن المنتزهات فيه قصور عديدة، وفيه جنينة كبيرة، تذهب الناس إليها للتفسح خصوصًا يوم الأحد، وفي أول آيار وخامس عشرة تذهب العائلة القيصرية كل سنة، ويعد يوم مشهود، كثير الزحام والفرح؛ لأن ذلك أول إخضرار الأرض وإشراق النبات، ثم يقل الزحام بعد ذلك:

كالبدر لا يُرتاد وهو منور وتروده الأبصار وهو هلال

ثم بنى في هذه السنة أيضًا في المدينة بيت للبوصطة لتقدر الواصلون أن تنزل فيه ولا يضيعون الزمن في (٦٠/٦) تفتيش منزل، وكذلك رتب معاملًا للآجر قريبة من المدينة بحسب الإمكان لغلو الآجر بسبب بعد المسافة، ولافتراس الحريقة المتتابعة بيوت الخشب. وفي سنة ١٧١٢، أنزل من المنجرة بموكب عظيم، الغليون الكبير المسمى پولتاڤا الذي ابتدئ فيه الشغل سنة ١٧٠٧، ولا زال في كل سنة ينشىء وينزل سفنًا عظيمة بمدافع جسيمة، خصوصًا في أيام أعياده وأعياد أهل بيته.

وقد رأيت إنزال سفينتين من المنجرة بتربورغ أحدهما باسم إسكندر ولي العهد، والثاني باسم زوجته ماريه، واجتمع الجم الغفير، ولكن ما أنزلوهما إلا عند حضور القيصر والعائلة الإمبراطورية، وذلك سنة تزوج ولي العهد،

ولا تعب ولا علاج في إنزالهما بل أزلقوهما مع القطع الخشب التي تسندهما تحت، فلما عامتا ذهبت هذه القطع وعامت، وعند النزول ضربوا المويسيقى، ثم أطلقوا المدافع، وهاتان السفينتان كبيرتان، ومن مدة سنتين الشغل فيهما.

وفي سنة ١٧١٣ حاصر القيصر هلزينفورس، ثم رجع إلى بتربورغ، قلت: هلزينفورس دخلت في حكم الروس في أيام القيصر إسكندر، والآن تذهب إليها السياحون في الصيف لطيب هوائها وللاستحمام فيها، وقد ذهبت إليها صيفًا، ورأيت في مينا‌ها قلعة عظيمة في الصخر مشحونة بالمدافع، وأمامها صخور، وبينهما البحر، فمدخل الميناء مشابه لبغاز الآستانة المحروسة، وأي مركب تقدر على العبور إذا لم يكن لها إذن.

وهناك بارجة كبيرة مشحونة بالمدافع، وحين تمر السفن عليها نقد لإعطاء أوراقها، فما أحصن هذه المينا، ومرأى البلد لطيف، وهي جديدة العمارة على كيفية بتربورغ في البناء وتوسيع الطرق، إلا أن المشى بها قليل، ولعله يصنع بعد مدة، وفيها رصد على الصخر، وفيها مدرسة كبيرة عمومية تسمى الأونيفرسيتيت، وفيها مقعد كبير فيه طاولات التلامذة موضوعة بالتدريج أعلى فأعلى، وفي صدره صورة إسكندر الأول قيصر الروسيا وعمود مكتوب فيه اسمه، وتاريخ تأسيس هذه المدرسة سنة ١٨١٥، وجميع ما في هذه المدرسة كان في مدرسة أبو، فلما حُرقت سنة ١٨١٨، نُقل كل ذلك إليها، وذهبت في البحر لرؤية قلعتها العظيمة المسماة، سيوى بورغ، ورأيت المدافع المرصوصة من كل جهة ثلاثة أدوار، وهي من أحصن القلاع، يقال إنها تشبه قلعة جبل طارق، وبهذه القلعة صهريج كبير لحفظ الماء العذب المتجمع في الأمطار، وحوله غدران من الأمطار، وهناك منجرة ومحل للأسلحة[٦٠/ظ] كالسيوف والبنادق، وفي ميدان هلزن فورس عامود رفع تذكارًا لزيارة القيصرة اسكندرة هذه المدينة، وعليه مكتوب اسمها، وكذلك تاريخ زيارتها ٢٩ تموز سنة ١٨٣٣، فانظر لحفظهم آثار ملوكهم وتنويعهم بشأنهم.

وفي هذه السنة أمر بطرس أن كل البضائع البحرية لا ترسل إلى أرخانكيل كالسابق بل إلى بتربورغ، وفيها زين كنيسة التثليث بناقوس

كبير أخذته الدننما من مدينة أبو، وكذلك عدة كتب أُخذت منها، وجُعلت أساس خزانة كتب أكديميا العلوم، وفيها ظهر أول كتاب طبع في بتربورغ، وهو كتاب إغارة العسكر الروس على السويد، وأخذهم منهم عدة حصون وقلاع وبلاد.

وفي هذه السنة في اليوم الذي يشهر لفتح پولتافا وصل الجي الفرس، وجلب معه هدايا للقيصر، من جملتها سباع وأنمار وفيل عظيم وهولندرته عجب الناس، ولما مرَّ على استراخان تبعه الناس بعض أميال من فرط التعجب، وكان للفيل كل يوم من الرز والزبيب والخمر، ونحو ذلك ١٥ رُبلًا، لكن برودة الهواء ورطوبته في بترربورغ خصوصًا في ذلك الوقت قتلت هذا الحيوان العجيب، ولكن حشي بالصناعة وعُمل بعرًا وحفظ إلى الآن.

وكان قائد الفيل في العادة يقوده في الأعياد محلى ومغطى بالنفاسة عند الأعيان، ويصل له من ذلك مدخول عظيم، قلت: والآن في تسارسكي سلوفيل من مدة تذهب الناس للتفرج عليه، وسفير بُخار الذي وصل هذا العام ١٨٤٩ حمل معه أيضا فيله، لكن ما وصل إلا في الصيف بعد موته هو في بترربورغ، لكن ما دفن فيها بل حمله أصحابه والأمراء والأعيان سلكوا مسلك القيصر، والناس على دين ملوكهم، فبنى الأمير غغارين حاكم سيبيري بيتًا عظيمًا وبقربه بنى الأمير شافيروف وسترويف وزوتوف وغيرهم.

وأمر القيصر بعمل طريق مستقيم في خلال الغاب من الترسانة إلى دير مار اسكندر نيفسكي، وهذه الطريقة الطويلة العريضة سميت نيڤسكي پروسپكت، قلت: هذا لنيفسكي أحسن شارع في بترربورغ، ولو كنت سحت الدنيا لأمكن أن أقول في الدنيا أولًا الطريق واسعة طولًا وعرضًا ووسطها [٦١/و] مبلط بالحجارة، وفي وسطها بلاليع لشرب ماء المطر، وما حول الحجارة من الطرفين مبلط بقطع الخشب المرصوصة بحسن الترصيف، وعليها تمر العربات مسرعة كالطير لسهولتها. وحول الخشب المماشي العريضة المبلطة بالحجر الصوان لمشي الناس، وفي هذا الشارع المخازن اللطيفة والتحفجية والكتبية والحلوجية والقهوجية والخياطون، لكن لا تظن أن ذلك كما في بلادنا، بل

كل ذلك في غاية الإتقان والإحكام والفخر.

وعادة الكبار التفسح في نيفسكي قبل الغداء خريفًا وشتاءًا، فهو ملتقى الأحباب ومجمع الأصحاب، ومأوى الحسان ومرتع الغزلان، وفي وسطه خزانة الكتب القيصرية المحتوية على الكتب من كل جنس حتى من كتبنا، وفيها جملة من كتب موقوفة أخذت في حرب أردبيل[1]، وقد نظرت هذه البنية العظيمة، وحسن وضعها وترتيب محال الكتب، و يجور لكل من يريد المطالعة فيها، أو الكتابة منها الذهاب إلى هذه الخزانة، إلا أنه لا يباح نقل الكتب إلى محل آخر إلا بإذن خاص، وكم رأيت هناك زيادة على الأوربيين فرس وقرم وترك يجيئون لنقل بعض الكتب أو قراءتها.

وفيه أيضا التياتر الإسكندري وأمامه فسحة ظريفة وحدقة لطيفة، وفيه أيضا السوق الكبير غوستولي دفور، وهو بنية عظيمة، مربعة الشكل، يباع فيه كل شيء، وفيه أيضًا بنية عظيمة أحدثت منذ سنتين وسقفها منير، وفي وسطها معبر لجميع الناس محتوية على فخَارة غالية، فلذلك تسمى الباج يعني المعبر، وبالجملة ففيه ما فيه مما لا أقدر أن أفيه.

ثم عمل القيصر فبريق شمع في ناحية فيبورغ، وسوقًا في جزيرة بتر بورغ، وأراد أن السفن المتجرية ترسي عند السوق، ووصلت مركب تجارة من هولاند في الصيف، وهي ثاني مركب وصلت بعد تأسيس المدينة وسيّرها القيصر بنفسه مثل الملاح إلى الجزيرة، وضرب صفيحة عليها نقش صورة القيصر لتذكار فاتحة التجارة الخارجية.

وفي سنة ١٧١٤ ذهب القيصر إلى ريڤال لتأسيس الميناء، وأخذت بيارق ومدافع من قلاع السويد، وجلبت إلى بتربورغ، ونقلت المحاكم من موسقو إليها، وأمر القيصر بإحصاء بيوت بتربورغ، فوجدت ٣٤٥٥، ووفد [٦١/ظ] عليه سفير حاجي محمد بهادر خان أزبك، ثم سافر القيصر إلى كرونشتاد، وأطلقت المدافع من القلعة، وتبعه ٣٠٠ سفينة، وكرونشتاد مرسى السفن الكبيرة ومقام الدننما الروسية وميناها حصينة جدًا، بحيث لا يمكن لسفينة العبور

(١) من أشهر مدن أذربيجان. ياقوت الحموي، ج١، ص ١٤٥.

إلا بـالإذن، وكم فيها من سـفن وبـوارج بعضها مـن أربعة أدوار كبار راسـية كالجبال الراسية بمائة وعشرين مدفعًا وأكثر، وهناك مدافع مرصوصة.

وقد دخلت المدينة من البغاز بعد أن أجازوا الجواز، فوجدت أبنيتها كأبينة ضواحـي بتربورغ، وبها كثير من بيوت النظام والبحرية، وبها ترسـخانة أمامها فسـحة كبيرة في وسـطها صورة بطرس الكبير فاتح البلد واقفًا على عمود وبيده سـيف، وهذه الصورة مصنوعة في سـنة ١٨٤١، وهي محتشـمة جدًا وبها جنينـة كبـيرة تسـمى «جنينة الصيـف» لطيفـة المنظر، فيها كشـكات لطيفة، وفيها منظر عـال، أمامه عمود أخضر عليه صورة رأس بطرس الكبير بتاريـخ ١٧٠٣، وصعـدت هذا المنظـر، فرأيت منه البحر والسـفن، وكان بطرس ينظر من هذا المنظر السفن الواردة.

وفي الجنينـة فسـقيتان كبيرتان مربعتان، في وسـط كل زورق صغير جدًا في غاية الظرافة بصاري لطيف، وهناك خليج مرصف لتعمير السفن تنزل فيه السـفن المراد تعميرها، ثـم يوضع حاجزان من الطرفين، ثـم يخرج الماء بالتو تعمر المركب، وحين تتم العمارة يرسـل الماء وتطلق السفينة تجري إلى البحر، وفي اليوم التالي سافرت السـفراء، ومن جملتهم سفير الخان وأعضاء المحكمة في سـفينة، فأمـا القيصر فوصل بلا عائق، وكذلك السـفن الـتي تبعته، وأما سـفينة السُـفراء وأعضاء المحكمة فمكثت ثلاثة أيام بلياليها، بسبب شدة الريح الشرقي وغشومية الريس والمستعمل، ولبَخت في الخوض وتعورت.

وفي اليـوم الثالـث تضاعفت الصاعقـة وأنذرت بالهـلاك، وفي اليوم الرابع خلصت من الخوض بواسـطة سـفينة أخرى أرسـلها القيصـر لإعانتها، ووصلت إلى كرونشتاد، ومن العجائب أنها ما غرقت بالكلية، وبهذا الغرق مات بعض الناس، ومنهم الجي الخان الذي وجد نفسه أول مرة في البحر، فبعد الجزع والفزغ والهلع، قَنط وتغطى ورَقَد على المطوبة ـ أي سـطح المركب ينتظر الموت ـ، وأمر الملأ الذي معه أن يدعو اللّه، وأن يقرأ عليه آيات من القرآن.

وفيها أمَرَ القيصر الحريص على زيادة عدد أهالي مدينته وتحسينها بأن يأتي إليها من موسقو وغيرها ٣٥٠ عائلة من الأعيان، كل يملك أقلًا مئة نفس، ليبنوا لهم بيوتًا في المحال التي تعطيها لهم المملكة، وأمر الأغنياء والملتزمين والتجار و نحوهم ببناء ٣٠٠ أخرى، وهذا الأمر ما أعجب كثيرًا من المأمورين، خصوصًا البيار يعني الملتزمين الذي اضطروا إلى ترك موسقو وطنهم العزيز، وسكنى بلد جديدة بالكلية ليست مخصبة، كما قالوا إلا بالدموع والمنتقعات، وقولهم هذا أذكرني قولي سابقا:

أمرَ على ربعهم ما حلا ... فأرجع من دمع عيني خصيبا
[٦٢/و]فوا عجبًا لبحار الدموع ... وما اطفأت من فؤادي لهيبا

لكن بطرس لم يتفكر إلا في عاقبة وطنه السعيدة، واستبدل الراحة الجزئية براحة العموم، وما فكر في راحة نفسه، بل خاطر بها دائمًا في المعارك، فذهب وحارب وأسر قبطان السويد إيرننشليد مجروحًا بعد ساعتين من حرب خطرة سفاكة ، وسطوات فتاكة، وقتل من ٩٤٠ من السويد ٣٥٢، وأسر الباقون، وقتل من الروس ١٢٤ وجرح ٣٤٢، وأخذ هانكوت وجزائر الأند، ودخلت الروس آبو بلا عائق.

وحينئذ كتب القيصر إلى مينشيكوف يخبره بذلك الفتح، ويقول حقيقة إن في هذه الحرب كما في حرب المعاقدين ضد فرانسا حبس جم غفير من جنرالات وفيلد ماريشالات، لكن ما أصيب بهذه القارعة ولا رئيس دننما، فنخبرك حينئذ بنصر مبين ما كان له نظير إلى هذا الوقت، وأخذ عدة أماكن في هذه السَنة من الفينلاند، منها مدينة فازا وقلعة نيسلوت، وبتملكها تمت إطاعة الفينلاند، ثم رجع إلى مدينته ظافرًا، ودخل بموكب عظيم بعدما عاقه الريح ثلاثة أيام عند كترينغوف، فلو كانت سفن البخار في زمنه ما كان انتظر ساعة، وكانت دبَرت عليه الأوقاف، فما كان يفعل إذ ذاك، وبسبب هذا الظفر انتقل القيصر من رتبة الرئيس إلى رتبة نائب قبطان، وهنئ بذلك، وحصل له السَرور بالظفر والاستحقاق الذاتي، فذهب إلى وسيلي استروف في قصر إشراقه منيشكوف للضيافة العظيمة التي عملها، وكان من

جملة الحاضرين قبطان السويد إيرنسشليد، فقال القيصر للحاضرين مشيرًا إلى القبطان، أنتم تنظرون بين أيديكم شجاعًا خادمًا أمينًا لملكه مستحقًا ليس فقط لإكرام شارل، لكن أيضًا لإكرامي، ومع أنه [٦٢/ظ] قتل من رعيتي كثيرًا من الشجعان، لكن ما فعل في ذلك إلا الواجب عليه، ويقدر أن يتحقق أن رعايتي له لا تنقص أبدًا، فعند ذلك قام القبطان ورق قلبه، وبعدما شكر القيصر وعمل له التمني أجاب، وقال: أنا ما فعلت إلا ما اقتضاه الواجب، وإن لم أُلاقِ الموت الذي طلبته في معارك الحروب، فمما يسلبني الفكر بأن غالبي ضابط بحري متميز هكذا مثل أبهة القيصر، وإنني سعدت بالتماس أمانة وعفوه وإقرار بطرس الصادق للخصم، ضاعف مقامه في اعتبار الناس:

وما عبَّر الإنسان عن فضل نفسه　　بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل

ويناسب أن تذكر هنا خطبة بطرس التي قالها بعد ذلك الظفر بمدة قليلة لما أنها تجلب العناية، وذلك يوم إنزال الغليون المسمى شليسلبورغ في الترسانة ٢٨ تشرين أول، وهذا الغليون ابتداته اليد التي تعرف القيادة بغاية الإصابة العقلية العليا، وقادوم الباني تاج ملوك الدنيا، قال للسامعين: «يا إخوتي، من كان يقدر منكم من مدة عشرين سنة أن يتصور أن هنا على ساحل بحر بلطيق أن نغلب أعداءنا في دننما بنيناها بأيدينا، وأن نسكن في هذه الأمكنة التي كسبناها باجتهادنا وشجاعتنا، هل كنتم تظنون أن في قليل من الزمن تشاهدون جمًا غفيرًا من العسكر والنواتية شجعانًا مجربين من طينة الروس، ومدينة مسكونة ليست فقط بالأهالي المولودة في الروسيا، بل بالمحترفين والأسطاوات والتجار والعلماء والغرباء الذين جاؤوا توطنوا بيننا، هل كنتم تظنون أن نعلم إلى هذا الحد أن نكسب تعظيم الأمم المنورة، المؤرخون نسبوا إلى الروم الشرف [٦٣/و] بأنهم كانوا مهد العلوم، لكن لما أجلاهم القضاء من بلادهم التجأوا إلى إيطاليا، ومنها انتشروا في كل الأوروبا، ودخلوا الليه وما وصلوا إلينا قط، بسبب جهل آبائنا، فبالنتيجة بقينا غارقين في ظلمة الجهل الذي كان غرق فيه الجرمانيا والليه قبل ظهور العلوم فيهم، وبواسطة اعتناءات الملوك العقلاء لهذين القطرين ما عوقوا في التمدن، وتصدوا بنفسهم

إلى نشر هذه العلوم التي الفضل فيها للروم بسبب القدم، وفي الآخر جاءت نوبتنا، والتمدن في هذا الوقت، وما بعد لا يجد عائقًا في وطننا بشرط أن تعاونوا مقاصدي بالخلوص والقبول وأن تقرنوا الاجتهاد والصبر بالطاعة والإذعان، وأنا أشبه تزايد العلوم بسريان الدم في جسم الإنسان، وأرجوا أنها تمكث عندنا، وأنها تتقوى لتعود في الآخر إلى بلاد الروم وطنها القديم، وآكاشف أن الروس يخجلون الأمم المتمدنة يوما، ويمكن في أيام حياتنا بتقدمهم في العلوم وحميتهم التي لا تنطفئ التي بواسطتها يستمرون على أشغالهم الشريفة ويرسمون أسمهم على قمة المجد المنيفة».

وهذه الخطبة التي أوحتها نفسه الكريمة الكبيرة سُمعت بغاية الإنصات الديني، وسببت حمية عمومية بين الحاضرين، ومن كان منهم يعترض على الملك لم يقدر أن ينكر حقية كلامه وعظم مقاصده ونفعها.

وفي ٢٤ تشرين الثاني من هذه السنة يوم عيد القيصرة، أحدث القيصر تشريفًا للقيصرة نشان كترين شكرًا لها على أفعالها الجميلة للقيصر وللمملكة، وذلك أنها أنفقت لسلامة القيصر والعسكر الروس كلما كانت تملك من الجواهر، وأنها استمالت الصدر الأعظم حتى أذن للروس بمجاوزة حدودهم، ولهذا سمي ذلك النشان «نشان التخليص»، ومن حيث أن هذا النشان على اسمها، كانت أول من تقلد بحمالته، [٦٣/ظ] ثم بعدها شاهزاده حنة بتروفنا بنت القيصر لإشهار تزوجها، ثم تنقل القيصر إلى رتبة ساري عسكر، ثم قرت عينه برؤية رهائن الروس من اسلامبول.

وفي هذه السَنة كتب فرمانًا ٦ تشرين أول بعقاب النفي، وأخذ الأموال للخزنة لكل شخص بنى في غير بتربورغ إلى وقت معين بيوت حجر، وهذا الفرمان ألجأ إليه حب القيصر لزيادة بلده المنشأة، وفي ٢٤ تشرين أول فرمانًا آخر أمر فيه أن كل سفينة تأتي إلى بتربورغ لابد أن تحمل معها عددًا من الحجارة، بعضها ثلاثين وبعضها عشرين، وبعضها عشرة بحسب كبرها وصغرها، وكل عربة بضاعة أو أمتعة تحمل ثلاثة أحجار، والحجارة الآتية في المراكب لا بد أن تزن أقلًا عشرة أرطال، والآتية في العربات لابد أن تزن خمسة، ومن خالف الفرمان فعليه الغرامة عشرة كبيكات لكل حجر.

وفي ٦ تشرين الثاني فرمانًا آخر أمر فيه أنه لا أحد يسكن عنده شخصًا إلا بضمان أو أوراق الشهادة، وهذا بسبب كثرة اللصوص والمعاكيس الذين عاثوا في المدينة.

وفي ٩ تشرين الثاني فرمانًا آخر أمر فيه أن يرسل من الأخطاط سبعة وثلاثين رجلًا من أهل الخبرة المجربين لأجل الجمرك وتفتيش المراكب، وبنى زيادة على الكنائس والبيوت التي أحدثت هذه السنة بيت لكونسلارية المملكة في غاية الترتيب، وحسب من جملة المستخدمين فيها تراجمة لستة عشر لسانًا وهي الروسي والليهي واللاطيني والنيمساوي والفرنساوي والإنكليزي والهولاندي والدانيمارقي والإيطالياني والإسبانيولي والرمي والتركي والتاتاري والصيني والمنغولي والكلموكي.

وفي سنة ١٧١٥ اعتنى القيصر بتحسين المدينة، واستعجال الأشغال الدائرة في عشرين موضعًا، وكان يلاحظها كلها بنفسه، فكان يروح من كرونسلوت [٦٤/أ] إلى بترغوف، ومن هناك إلى كراسني سلو. . إلخ.

وفي أول هذه السَنة أشهر عرس الأمير زوتوف وكان عمره ٨٤ سنة، وتزوج بعازبة عمرها ٣٤ سنة، وعمل مسخرات[1]، وأمور مضحكة مناسبة لذلك الوقت، وحضرت القيصرة وأتباعها والعائلة الملكية ونساء القصر في كسم[2] غريب، وعقد العقد قسيس عمره ٩٠ سنة، وقدم الخمر اختيارية لا يمشون إلا بغاية العسر، وقصد القيصر من ذلك فكة سكان مدينته بمناظر عجيبة بين الأشغال الشاقة.

وفيها أرسل القيصر سفيرا إلى بلاد الفرس لعقد التجارة، وفيها طلب قيصر الصين من الأمير غاغارين حاكم سيبريا حكيمًا، ومعه كل العقاقير والأشياء اللازمة لصناعته، وغاغارين لما استعجل بإخبار القيصر، اغتنم القيصر هذه الفرصة لعقد المحبة، وأرسل له طبيبًا إنكليزيًا كان في عسكره وأصحبه بمهندس.

---

(١) كتب فوقها المصنف: رقص.

(٢) أي: ظهر بمظهر لائق. راجع: رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ط١، ج٩، (ترجمة: جمال الخياط)، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٩، ص ٨٨.

وفيها ١٢ آب، وُلد للقيصر حفيد، وسمي على اسمه بطرسًا، وأشهر فرح الولادة أسبوعًا، وأرسل القيصر إعلامات بذلك للغائبين عن المدينة، فكتب إلى شيريميتوف ما نصّه: «أخبرك أن الله أعطاني هذه الليلة عسكريًا شابًا اسمه كأسمي، وأترجاك أن تخبر بهذا الخبر الجنرالات والضباط، ومن طرفي إلى كبار الناس وصغارهم».

وكتب مثل هذا إلى ڤون هوفت، غير أنه قال: نواتيًا شابًا وزاد، ولما كتب إلى صولتيكوف: « أرجو الله أن أراه يومًا تحت البندقية».

وفيها أسست أكديميا الملاحة وتلامذتها ٣٠٠ من الأعيان، ومع أن القيصر سافر سنتين لرؤية البلاد الغريبة فنفسه حاضر، فلم تنقص الأشغال، وسفره ما كان إلا لنفع وطنه، فإنه لما رأى نظام البلاد وبدائعها وحسن التمدن فيها، وتقدم العلوم ومنافعها [٦٤/ظ] أحب أن يقلد ذلك في وطنه ورعيته كما تراه في أخباره.

ومن جملة ما أسس من جديد قاعة التاريخ الطبيعي المزينة بجملة عظيمة من الحيوانات والطيور والأسماك، والحيوانات التي تعيش في البر والبحر والحشرات، وغير ذلك من أشياء الصناعة، اشترى القيصر البعض من الأجزاء؛ شيئًا بقيمة ١٥٠٠٠ مجر، والبعض اكتسب من هولاند في سنة ١٦٩٧، وبقي في موسقو، وفي هذه السنة ١٧١٦، كل هذه الأشياء جمعت في بيت كيكين، وضم إليها جملة من الأحجار المعدنية، ومن الودع اشتريت من العالم غوتفالد، وكتب عظيمة جلبها مينيشيكوف من كورلاند سنة ١٧١٤.

وبعد سنة ضم أيضًا جملة كثيرة من هذا النوع كانت عند روش معلم القيصر التشريح، وبعد موته اشتراها القيصر من ورثته، ثم نقل ذلك إلى وسيلي اوستروف في المحل المسمى «كونست كامير» الموجودة فيه إلى الآن والمزدادة كل أوان، وهذا المحل قصر كبير محتو على عدة أوضات واسعة توجد فيها كل أصناف الحيوانات والطيور والعصافير والحشرات والأسماك والمعادن والودع والملابس وغير ذلك، وفي كل سنة في الربيع تفتح لتفرح العامة فتذهب الناس أفواجًا لرؤية هذه العجائب ومشاهدة هذه الغرائب.

وفي سنة ١٧١٧، حفر أربعة خلجان، ورجع فيها القيصر من فرانسا، وعرض عليه السويد إرسال وزراء مختارة من الروس والسويد في جزيرة الأند، لعقد الصلح الدائم بين الدولتين، فأرسل القيصر بالسرعة القونت بروس.

وفيها بنيت بالحجر كنيسة إسحاق التي كانت من خشب، وعمل لها قبة طولها اثنى عشر باعًا، وناقوس أحضر لأجله القيصر من أمستردام ساعة كبيرة دقاقة بقيمة ٣٥٠٠٠ رُبل، لكن خربتها الصاعقة سنة ١٧٣٥.

وفيها أهديت للقيصر كرة سماوية كبيرة جدًا بحيث تكلفت مبلغًا جسيمًا في نقلها برًا من كيل إلى بترسبورغ أهداها له دوقة شليسفيل هولستين [٦٥/و] لما عرف بشغفه بالعلوم، وفيها ابتدئ في بيت لعب التياتر بمعونة شاهزاده نتاليا الكسييفنا.

وفي سنة ١٧١٨ قضية ابن القيصر شاهزاده اليكسي القاضية، وذلك أن سلوكه المنحل ومعاندته لأبيه وعدم استحسانه لأفعاله، وهربه خارج الروسيا، كل ذلك أغضب القيصر حتى هدده بحرمانه من إرث التخت، لكن لم يفصل ذلك الأمر بسبب أنه كان ابنه المتوحد، لكن لما ولد بطرس الثاني وَلَد الكسي أراد القيصر أن يفرغ وسعه في تذليل الجموح، وكان كل ذلك بلا طائل:

إذا أظهر الدهر شخصًا لبيبًا ... فكن في ابنه سيِّءَ الاعتقاد
فلست ترى من نجيب نجيبًا ... وهل تلد النار غير الرماد

ثم لما لم تنجح الوسائط اضطر إلى تهديده بالموت كالباغي، لكنه لما سمع ذلك أخذه الفزغ، وملك قلبه الهلع، ووقع في حالة الغرغرة، وبلغت الروح الحنجرة، ولم تنفع اجتهادات الأطباء، ولا تسلية الأحباء المحققين له عفو والده، بل ولا رقة بطرس عليه في هذه الحالة، حتى كأنه نسي عيوبه وأفعاله[1]:

[الكامل]

(١) البيت للشاعر خويلد بن خالد بن محرز بن زبيد بن أسد، المعروف بأبي ذؤيب الهذلي، توفي في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وانظر البيت في الديوان، تحقيق: أحمد الشال، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، بورسعيد، ط١، ٢٠١٤، ص٤٩.

وإذا المَنِيَّة أنْشَبتْ أظفارها ألفَيْتَ كُلَّ تميمة لا تنفعُ

وفيها أمر بإحداث ضابط سياسي للمدينة، وترتيب كونسلارية السياسة، وقواعدها منحصرة في ١٣ نوعًا:

١ـ الأبنية بحسب الأصول المقررة قبل.

٢ـ إحكام شواطئ الأنهار والخلجان وحفظها.

٣ـ السرقة.

٤ـ النظافة وتعيين الأماكن لبناء القوارب المعينة لتجار الوقود.

٥ـ النظر في صفة البضائع المعروضة للبيع وثمنها وذرعها ووزنها.

٦ـ رعاية النظافة أمام البيوت المسكونة وسوق السمك وحفظ القناطر.

[٦٥/ظ] ٧ـ فصل الخصومات والمنازعات بالسرعة.

٨ـ النظر في مداخن البيوت والأقمنة والمستوقدات.

٩ـ النظر في البيوت المتهمة والألعاب المحرمة.

١٠ـ إمساك المتسحبين والهربانين والبطالين.

١١ـ إلزام كل السكان أن ينهوا إلى السياسة كل الأشخاص التي تصل أو تسكن عندهم.

١٢ـ الاعتناء بإمساك المؤذين وإطفاء الحريقة، ووضع حاجز في طرف كل حارة، وإبقائه طول الليل.

١٣ـ الاعتناء بنصب مشدَات في المدينة وأون باشوات لحفظ السكون والترتيب العام.

وزاد القيصر بخط يده على هذه الأنواع.

١٤ـ إسكان النظام في بيوت الناس أيًا كانوا كبارًا أو صغارًا.

قلت: هذه الأمور كلها مراعاة الآن بغاية الإحكام وألف شيء آخر، فالأبنية في غاية الإتقان، يبني البيت الكبير بأربع أدوار أو خمسة في أقل زمن،

وشـواطئ الأنهار والخلجان مرصفة أحسـن الترصيف، ولهم في كشف السرقة تفتيـش حصيـف، ولا تنفع عندهم حيلة السـارق الظريـف، والنظافة مراعاة، ففـي الخريـف والصيـف، يكنس الطـرق وتوصيل مـاء المطـر إلى البالوعات وإزالة الوحل والقاذورات، وتجديد قطع الخشب أو الأحجار التي خلخلها العربات، وتثبيتها الخشـب بالزفت والأحجار بالرمل، وفي الشـتاء والربيع يكنس الثلج، وتنظيف المماشـي (....)[1]، وربما توالى الثلج، فكلما سكن نظفوا، وإذا جمد حكوه بالحديد، ثم رشوا عليه الرمل وكنسوه.

فدائمًـا يمكـن التفسـح بسـهولة، وأمَـا طـرق العربـات التي في الوسـط فـلا تنظـف إلاَّ في آخـر الشـتاء، وكذلـك الأسـطحة قبـل أن تحلـل شمـس الربيـع ذلـك، فيكـون البلـل والوحـل، وأمـا شمـس الشـتاء فلا تحلـل الثلج بـل الصحـو والنشـف غالبًـا عنـد شـدة الـبرد، فكأنها تـبرد كما قيـل[2]: [السريع]

يـومٌ تَـوَدُّ الشـمسُ في بردِهـا أن أتت النـــار إلـــى قُرْصِها

وكذلـك القناطـر في غاية المتانة والظرافـة، وإذا حصل أدنى خلل أصلح في الحال، وأمَا المداخن، ففي كل أسـبوع يأتي الهبابـون لتنظيفها لما أنها مظن الحريقة، وهناك محال يرصد منها الحريقة، فحينئذ يولع فانوس لإعلام الناس، وتأتـي المطفئـون بالطرنبات وغيرهـا من آلات الإطفاء وأمرهـم في ذلك عجيب، والقلقات والخفراء في كل حارة، ومن سكن في محل فلابد من التعليم على تذكـرة مـروره، ولكل أحـد تذكرة يغيرهـا في الغالب كل سـنة، ويدفع شـيئًا مخصوصًا، ولكل بيت بواب أو أكثر بحسـب صغـر البيوت وكبرها، ويمشـون أمـام البيوت في الليـل بعصى يخبطونهـا علـى الأرض، وفي البيوت الميرية حراس وديدبانات، وللأقوات سـعر مخصـوص من طرف الضابط يكتب في الجرنـالات لتعرفـه العامة، ومن طفـف في الكيل أو الـوزن فعليه الغرامة،

(١) كلمة غير واضحة.

(٢) منسوب للشاعر علي بن يوسف بن شيبان، جلال الدين النُّميري المعروف بابن الصفار توفي سنة ٦٥٨هـ. الذهبي: تاريخ الإسـلام ١٤: ٨٨٦؛ والصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سـابق، ج ٢٢، ص ٢١٦؛ والبيت في المصدر السابق، ج٢٢، ص ٣٤٨.

والمجرمون يقادون في السلاسل، ويعاقبون على حسب جريمتهم، إلى غير ذلك من أنواع السياسة الدقيقة الباعثة على الراحة العامة، والسَادة على المؤذين كل طريقة.

وبعد ما رتب القيصر السياسة، شرع في الأمور المسلية للعامة والخاصة الذين يرتاحون إليها بعد التعب، وينسابون إليها من كل حدب، كي تنشطهم وتلين طبائعهم وتفتق أذهانهم للحكمة، ثم بعد هذه الملهيات تفكر أنه بقي عليه أيضًا تقريب الأعيان المفترقين بسبب الأوهام الموجودة، وذلك بأن يستميلهم للذات اللطيفة التي ما عرفتها الروس، بل ولا تصورتها قبله، وبأن يسهل التعلقات بين النوعين الذكور والإناث، وليس إلا في أيام القيصر الكسي ميخايلوفيج أن النساء ابتدأت في تحلية الجمعيات، وأطلق لهن العنان قليلاً في الروسيا، لكن كان ذلك معارضًا بحجر الآباء والأزواج، فكُنَّ يعشن في الخزْن بلا رجاء ولا حظ ولا مَيل بسبب حجرهن في البيوت، فلم يبق [٦٦/و] لهن إلا التأوه والملل والإطاعة الكاملة لأوامر الظالم البيتي التي هي في الغالب هوائية، والإرادات التي هي تارة عنادية، لم تغير شيئًا من معيشتهن بالسكون والهدوء والصلاح، حتى لو صدرت من الطاعن في السن الذي شابت ناصيته، فكان يكفي في ضياع صيت امرأة شابة من الأكابر أن تخاطب رجلًا ولو بكلمة، وإن صدر هذا الذنب المدَّعى من امرأة متزوجة حرمت في الحال من رضى زوجها، فعلى هذا يمكن أن تقيس ما يقال، وما يظن فيمن تعطي يدها لأول واصل وتتحدث معه، وتمشي معه متفسحة في حضرة جمعية عظيمة، وهذه الحالة المهابة بين الجنسين التي لا تتحد مع أنوار العلوم والتمدن المبتدأ بين أكابر الجمعية بُسقت، وانكشفت بالتدريج رغمًا عن اجتهادات القيصر، وعاقت أيضًا تحصيل مقاصده، لكنه عزم على اجتثاث هذا الوهم، ولأجل ذلك كتب ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧١٨، فرمانًا لترتيب الجمعيات المجهولة إلى ذلك الوقت التي فيها يحضر الرجال والنساء سواء، وبيان ذلك كما كتب في الإعلام أن الجمعية تكون في بيت أيا كان بلا تضييق، فتأتي الناس ليس فقط من شان الحظ، بل من شان أشغالهم أيضًا؛ لأن كل واحد يجيء هناك يرى الأشخاص الذين يحتاج أن يكلمهم في الأشغال، ويتعلم

منهم الأخبار الواقعة، فقصارى الأمر أن الناس تذهب هناك للتسلي، وقبل استعمال هذه الجمعيات عمل القيصر قوانين لترتيبها وها هي:

* إذا أراد شخص أن يعمل جمعية، لا بد أن يعرف الأشخاص الذين يجيئون رجالاً أو نساءً بواسطة الكتابة أو غيرها محل الجمعية وأن يجيئوا إن يريدوا.

* [٦٦/ظ] الجمعية لا تبتدىء قبل أربع ساعات أو خمسة بعد الظهر، ولا تمتد بعد الساعة عشرة.

* صاحب البيت ليس مضطرًا إلى ملاقاة المعزومين ولا توصيلهم ولا تحيتهم ومؤانستهم، بل يقدر أن يغيب بلا لوم في وقت الجمعية بشرط أن يهيئ ذلك الأوض بالسُفر والنور اللازمين والمشروبات لمن يطلبها، وأن يضع على سفر مخصوصة ما يلعب به كالورق.

* لا تعين السَاعات بل الضيوف يقدرون أن يجيئوا في أي ساعة شاءُوا بشرط أن لا يكون قبل ٤ ساعات ولا بعد ١٠.

* يمكن التفسح واللعب في الجمعية بلا مضايقة ولا إضرار لآخر، ويمنع من القيام عند ذهاب بعض أي كان، ومن توصيله إلى الباب، أو فعل التكلف والرسم، وفاعل ذلك يعاقب بالنسر الكبير، وذلك أنه يلزم أن يشرب كأسًا كبيرًا عليه نسر، ولا يقبل الاعتذار، فبمجرد الإثم يصب الآثم و يحتسي فقط، يلزم الاقتصار عند الدخول على توطئة الرأس قليلًا للسلام على الجماعة.

* يعين كل أنواع الناس الذين يترددون في الجمعيات وهم كبراء العساكر والأعيان وأصحاب الخدم الشريفة كلهم مع زوجاتهم.

* الخَدَمة والقوَاسة لا يدخلون داخل الأوض، لكن يمكثون في المدخل أو في محل آخر يعينه لهم صاحب البيت، وهذه الشروط ملاحظة في المضايف و نحوها إن أعطي فيها رقص أو ضيافة.

* الرقص في أوضة، وفي أخرى يُلعب الورق أو الضامة أو الشطرنج، وفي ثالثة يشرب الدخان والسجار، وفيها سفرات عليها الخمر [٦٧/و] والدخان والكبريت...إلخ، والقيصر كان يحب لعب الضامة، وكان ماهرًا فيها بحيث يندر من يغلبه.

وأول الجمعيات كان عند ابركسين، ثم عند الأمراء، ثم عند أهل الاعتبار، وفي يوم الجمعية يحضر رئيس السياسة ويكتب أسامي الواصلين، و يجيء القيصر في الساعة ٦ مع القيصرة، وباقي العائلة الملكية، ويفتتح الرقص بالرقص الليهي ثم الإنكليزي، وضباط السويد كانوا متميزين في الرقص حتى أنهم زمانًا طويلاً أعطوا دروس رقص لنساء الروس ورجالهم، وفي وسط أدوار الرقص يحضر للستات الشاي والقهوة وشراب العسل وغير ذلك، وبعد ذلك كانت العادة بإحضار الشوكولات وشراب الليمون، وذلك أن دوقة هولستين فعل ذلك أولاً فأتبعه الناس، وهذا الدوقة أول من أظهر لكبراء بتربورغ حسن الموسيقى، وعنده نوبة أحضرها من پچ، وما كان سمع إلى ذلك الوقت في الرقص إلا أصوات الطرنبيطة المصمتة والبوق و نحو ذلك، وكان ذلك حسنًا لفقد الأحسن.

وفي الصيف كان القيصر يعطي الجمعيات في جنينة الصيف التي أنشأها على الذوق الهولاندي من عدة خطوط مستقيمة، وفيها حفر القيصر خليجًا بين النيڤا وڤولكوف دفعًا لخطر الغلال و نحوها إذا أُحضرت من طريق آخر.

وفيها أنشأ عدة مدارس منها مدرسة الأشغال المتعلقة بالبلاد الغريبة، ومنها مدرسة الحرب، وأحدث البوسطة على الخيل، وكرخانة الورق في دويدوف، وفبريقة بُسط وأقمشة من الحرير والصوف والمقصب، ومعملاً للغزل فيه يشتغل ٨٠ امرأة فقراء وعجائز تحت نظارة امرأة من هولاند.

وهذا الغزل قوي ورفيع لا ينقص عن غزل هولاند، فأنت ترى كيف حوت المدينة في هذه السنة زيادة على الأمور اللازمة النافعة أصناف الفنون والحكم وأنواع الترفه والنعم.

سنة ١٧١٩ ا/٦٧ظ فيها أرسل القيصر رجلين عارفين، لكشف شبه الجزيرة «كامشاتا» التي تدفع الخراج للروسيا من سنة ١٧٠١، ونعتها بالتفصيل، ولمعرفة هل آسيا ملتصقة بالأمريقا بلسان الأرض. وأرحَل آخر لمعرفة سواحل بحر كيلان بين استراخان واستراباد.

وفيها أمر في شهر آذار أن يكون أوَّل نيسان كوميديا عجيبة، فأهطع

النَّاس زرافات[1] ووحدانا لرؤية اللعب، لكن بدل الكوميديا رأوا لوح خشب مكتوب عليه بحروف كبيرة «هذا اليوم أول نيسان»، ففهموا وسروا بمباسطة القيصر معهم، كما يباسط الأب أولاده، وذلك أن العادة في هذه البلاد أن يلعبوا لعبًا في شهر نيسان يسمى «سمك نيسان»، وذلك أن يخدع شخص آخر مثل يَدَسْ عندنا، وفي السنة السابقة فعل القيصر هذا اللعب بنوع آخر، وذلك أنه ذهب أول نيسان إلى بيت خشب قديم منفرد، وأمر بإحراقه فسارع الناس والعساكر بآلات الإطفاء، فسُرَّ باجتهادهم وغيرتهم، وقال للجماعة مبتسمًا منبسطًا: هذا أول نيسان، ثم وضع لهم براميل خمر وبوزة لإزالة فزعهم، واجتثاث هلعهم، وفيها غنموا من السويد ٣ سفن حربية، فشكر القيصر الله وصلى في كنيسة القلعة، وضربت صفيحة لتذكار هذا الفتح.

وفيها كمَل بناء تساركي سلو وابتداؤها في سنة ١٧١٠، ولم تزل تزداد بالسكان الآتية من النواحي ومن موسقو، ومن حيث إنها إقطاع القيصرة كترين عملت لها طريقًا عريضة، وبنت فيها قصرًا بغير علم القيصرة، وعندما تمّ عرضت عليه أن يذهب معها للتفسح، فلمَّا رأى ذلك سُرَّ وانبسط، ومن ذلك الوقت صارت منتزهًا لسكان المدينة يذهبون [٦٨/و] إليها كل يوم، والآن زادت حسنًا وجمالاً وبهجة ودلالًا.

سنة ١٧٢٠ فيها غنم الروس من السويد ٤ فريقاطة، وأنعم القيصر أولًا على البشير بهذا الخبر برتبة قولونيل، وعلى الأمير كاليتسين الغالب بسيف وعصى مرصعة بالجواهر، وكتب له رسالة يشكره فيها، ورقى رتبة معاونيه، وأعطى للضباط صفائح ذهب مضروبة لشرف هذه الواقعة، ولمن تحتهم صفائح فضة، وأشهر النصر بإطلاق المدافع، وبالصَّلاة في الكنائس شُكرًا لله، وأمَرَ أن تدخل السفن المكسوية بموكب عظيم على بتربورغ، فدخلت وأطلقت المدافع لدخولها، وقيدت قرب كنيسة التثليث، ونصب هناك هرم من الخشب مزين وصور مختلفة لإشهار ذلك الفرح، وعملت في الليل حريقة أمام

١ () أي: الجماعة من الناس: انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط٤، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤، ص ٣٩٢.

الكنيسة ووقدة في المدينة، وبقي الهرم مدة مملكة بطرس، وكان يسمى هرم الأربع فريقاطات.

ومع كبر المدينة يومًا فيومًا، وازدياد السكان وقتًا فوقتًا، وتكاثر الفتوح حينًا فحينًا، وتظافر العلوم والفنون آنا فآنا فالمخالفة التي كانوا يحدثونها في كل وقت كانت عائقًا صعبًا يتعب القيصر في قطعه، وثعبانًا لساعًا لا بد من ضربه قبل لسعه، فمن ذلك الأوهام وأراجيف العوام، كما وقع في هذه السنة ١٧٢٠ أن فلاحًا كان يدعي الكهانة، قال: إن في شهر تشرين يكون طوفان يغرق المدينة والسكان، ويرتفع على الشجر [٦٨/ظ] الموجود في القلعة، فصدَّقه كثير من العوام، وجم غفير من الطغام والتُجار إلى أعالي بتربورغ، لكن القيصر قمع الفتنة، ولما عرف المذنب حبسه في القلعة، وفي اليوم الذي ادعى أن يكون فيه الطوفان عوقب بالشدة، وأوصى الناس أن لا يصدقوا مثل هذه الخرافات والأوهام.

قلت: في سنة ١٨٤٠ قال بعض القسس مثل هذه المقالة، وكذَّب اللّه أقوالهم، وللّه در أبي تمام حيث حضَّ على عدم سماع هذه الدجالين فقال [1]: [البسيط]

السَيف أصدق أنباء من الكتُبِ ... في حده الفصل[2] بين الجِدِّ واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشكِّ والرِيَبِ

(١) في ديوان أبي تمّام الطائي(ت ٢٣١ هـ)، مصدر سابق، ص ٧.
(٢) في الديوان: الحدّ.

وقال آخر[1] : [البسيط]

دَع النجومَ لطُرقيٍّ يعيشُ بها ... وقم لوقتك وانهض أيها الملك
إن النبيَّ وأصحاب النبيِّ نهوْا ... عن النجوم وقد أبصرت ما مَلَكوا

وكما وقع أيضًا في سنة ١٧٣٠ أن قومًا أهل سوء خدعوا النَّاس، فلما دخلوا كنيسة التثليث، وجدوا الدمُوع تجري في صورة العذراء، فقالوا: هذا دليل غضب العذراء على المدينة، وهمُّوا بالخروج، وكان القيصر غائبًا ذلك اليوم، وما قدر القونت كالوڤكين أن يُسكن الناس، وخاف وخامة عاقبة هذه الحادثة، فكتب للقيصر، فجاء في اليوم الثاني، فامتحن صورة العذراء وكشف الحيلة، وانكشف المذنب وعوقب، وأظهرت صورة العذراء فسكن الناس، وهذا كما وقع للمرحوم السلطان محمود خان ممدّن الترك في هذا الأوان، فإنه تعب كثيرًا في فمع الأوهام حتى وضع قوانينه على طرف التمام، وبقيت بقايا نرجوا أن تندفع بهمة ولده مولانا السُلطان خليفة الوقت والزمان.

سنة ١٧٣١، فيها وصل خبر الصلح، ولذلك أرسل القيصر للأمير كاليتسين رئيس الدننما [٦٩/و] التي في فينلاند بترك الحرب في الوقت، وقطع العداوة والرجوع، وذلك الخبر جاء به أوبريسكوف، وذلك الصلح على أن ايستونيا وليفونيا واينكرى وجزءًا من فينلاند مع مدينة بتربورغ للروسيا، ولما رجع إلى المدينة أطلقت المدافع، ودقت الطرنبيطات، فظن الناس حصول واقعة غريبة، وسارع الكبار إلى فسحة كنيسة التثليث لرؤية القيصر، فأخبرهم بانقضاء الحرب وعقد الصلح، وبعد الصلاة صعد القيصر على منبر، وهو في لباس العرضي متلقدًا بجمالة ماراندريا، وسلَّم على النَّاس بالحشمة، وقال:

«أسلم عليكم أيها النصارى الحقية أشكروا اللّه القادر الذي أعطانا وأعطى السويد صلحًا خالدًا بعد حروب دامت إحدى وعشرين سنة».

(١) هو : طه بن إبراهيم بن أبي بكر بن أحمد بن بختيار جمال الدين الهذباني الإربلي. توفي سنة ٦٧٧هـ.ابن الشعار الموصليّ: قلائد الجمان ٢ : ١٦٢– ١٦٧؛ والذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ١٥، ص ٣٣٨– ٣٣٩؛ والصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج١٦، ص ص ٤١٣– ٤١٤. وانظر الأبيات في الوافي بالوفيات، ج ١٦، ص ٤١٤.

ثم اغترف من برميل خمر وشرب على صحة الرعية، قائلًا: «أسلم عليكم يا أحبابي الطيبين، أعاننا الله على تنفيذ مقاصدنا في الصلح لأجل نمو سعادة هذه المملكة، وتخفيف الأثقال التي حملناها مدة الحرب والسلام عليكم».

ثم عرض أهل الحل والعقد على القيصر أن يقبل رتبة باش قبطان، فقبل ورقي أوبريسكوف سفير الصلح إلى رتبة الضابط، ونشر خبر الصلح في المدينة، ودارت العساكر في الحارات متلفعين بشملات بيض، وفي أيديهم بيارق بيض مزينة بتيجان الغار الأخضر، وتتبعهم الطرنبيطات.

وفي المدينة عدة أفراح وألعاب عامية، ثم في ٢٠ تشرين أول حكم أهل سينات أن يترجى القيصر باسم كل الرعية، شكرًا على سعيه الجميل أن يتلقب أب الوطن وإمبراطور كل الروسيا وبطرس الكبير، بسبب القوة والغنى وأنوار العلوم وتوسيع الرقعة، التي كانت الروسيا بسببها ممنونة لاجتهاداته، وبسبب رحمته وشفقته واعتناءاته الأبوية وصلت رعيته باتباع أثره العظيم [٦٩/ظ] فقط إلى أعلى درجة من المجد بين العالم، فامتنع أولًا تواضعًا لكن الإلحاح القائم والالتماس الدائم ألجأه إلى القبول، وذلك أن الأسقف خطب في كنيسة التثليث خطبة في ذلك الغرض، أولًا مدح فيها بطرس وأفعاله، ثم دعا النَّاس إلى شكره والاعتراف له بما يليق بواجب حقه وحرمته، فقربت كبار القسس من القيصر وشكر القيصر القونت كالوڤكين من طرف الرعية على إخراجه الناس من ظلمة الجهل إلى نور العلم والمجد العام، وعلى إخراجها من العدم، ونظمها في سلك الأمم المتمدنة، ثم ترجى الكونت بعد ذلك القيصر أن يقبل الألقاب المذكورة آنفًا، ثم قال: «نحن لا نقدم لك باسم رعيتك إلا ما تستحق الحياة، الحياة الحياة لبطرس الكبير، أب الوطن، إمبراطور كل الروسيا»، وبمجرد ما قال ذلك انطلقت أفواه الناس بذلك داخل الكنيسة وخارجها، ودقت الطرنبيطات والطبول والنواقيس، وأطلقت المدافع من القلعة والترسانة، فلما سكت الصدا رق القيصر، وقال بأعلى صوته:

«اتمنى أن كل رعيتي تعلم بالحقيقة ما فعل الله لنا مدة الحرب التي انقضت الآن، وتبدلت بالصلح، نحن نلزم أن نوجه إلى الله شكرًا صادرًا من القلب، لكن مع اعتمادنا على الصلح لا يلزم أن نفضل صنعة الحرب، وألا تقاسي الروسيا ما قاست الروم، فالمناسب لنا أن نشتغل في النفع العمومي، و نحقق المنافع التي منّ الله بها علينا داخلاً وخارجًا؛ لنخفف بها أثقال العامة».

ثم صلُّوا وقرأوا الإنجيل، ثم أُطلقت المدافع أيضًا، ثم جثى كل النَّاس [٧٠/أ] وقرأ المطران الدعاء، ولما خرج القيصر من الكنيسة سلمت عليه كل الناس بأصوات متفقة «الحياة للإمبراطور، الحياة لأبينا»، ودقت الطرنبيطات والطبول والنواقيس والمدافع، وهو في قلب رعيته، يزدحمون حوله لتقبيل يده(...)[1] بغاية المحبة وانفتاح القلب، إلى أن وصل سينات، وهناك نصبت سفرة لألف شخص.

وبعد الوليمة المفتخرة كان التياتر، ثم الرقص في القصر، وعمل إنعام عام للعامة بإطلاق أهل اللومان والمحبوسين لغير قتل أو كفر، أو قطع طريق، ورفعت البواقي من سنة ١٧٠٠ إلى سنة ١٧١٨ التي كانت ملايين، وكذلك غرامات في كل مملكة الروسيا، وعملت للعامة وليمة مخصوصة، مركبة من ثور (...)[2] ومزين، ومغروز فيه كثير من الطيور، وفي كل جنب عين واحدة ينبع الخمر الأبيض منها، ومن الأخرى الخمر الأحمر.

ثم بعد الرقص عملت الحريقة ورتبها القيصر بنفسه، فأظهر أشياء عجيبة منها معبد يانوس، وأبوابه مفتوحة ومنورة بعدة ٢٠٠٠٠ أنوار مختلفة[3] الألوان، وفارسان أحدهما يحمل على مجنة سلاح الروس، والآخر سلاح السَويد تقاربا قليلًا قليلًا من أبواب المعبد وتصافحا علامة الصلح.

وفي ذلك الوقت دقت الطرنبيطات، وأطلق ألف مدفع، وزادت الحريقة جدًا، حتى كانت أسوار بتربورغ والنيڤا من اللهب، وعلى يمين المعبد ترس عليه تمثال

(١) كلمة غير واضحة.
(٢) كلمة غير واضحة.
(٣) ضرب عليها المصنف.

الحق يفعص برجله جنية، وعليه مكتوب هو «يعني الحق دائمًا يغلب»، وعلى الشَّمال سفينة تاركة بحرًا عجاجًا لأجل أن تدخل في الميناء، وفوقها مكتوب إنما الأعمال بخواتيمها»، ودامت الحريقة إلى ما بعد نصف الليل، [٧٠/ظ] ورجع القيصر إلى سينات، وهناه الجماعة شاربين الخمر، وامتد الرقص إلى السَّاعة الثالثة، ودقت صفائح من الذهب والفضة، وجوزي كل من حارب السَّويد من الضباط والعسكر كلٌ على حسب حاله، وأنعم القيصر على قبطان السويد ايرينشليد المذكور سابقًا بإعطائه صورته المرصعة بالألماس، وأكرمه بتلقيه للوداع، وكتب معه كتاب وصية لملك السويد على هذا النمط الواجب علينا أن نشهد له شهادة عادلة مخلصة أنه في الأشغال التي كان فيها أسيرًا أبلى بلاء حسنًا، وأظهر الشجاعة التي لا تُنتظر من أحد، وبالحقيقة استحق تعظيمنا، ومثل هذا المدح لا يكون بلا نتيجة.

فلمَّا وصل القبطان إلى وطنه بالكتاب رقَّاه الملك إلى رتبة قبطان باشا، ثم لما أراد القيصر أن يشركه في الحظ والفرح أهل موسقو سافر في الجرار- يعني عربة الزحليقة- مع عياله، ومع عرضيين من الخفر؛ لإشهار ذلك الفرح فيها أيضًا، ولا تظن أن كل ذلك يعوق عن زيادة الأبنية والعمارات في هذه السنة التي من جملتها معمل لتكرير السكر، واصطبل كبير من الحجر للخيول القيصرية، ومحال للعربات الإمبراطورية، وتكبير قصر الشتاء، وتأسيس أول مدرسة القسس إلى غير ذلك، وقد فاض النيڤا في هذه السنة، ٥ و١٠ كانون الأول، وبلغ ٧ أقدام، و٤ أصابع، وفاض الماء في الحارات، وقطع العبور، ومات بعض الناس، لكن ما هذا بأدهى وأمر من فيضان سنة ١٨٢٤، فلنكتف عن تفصيل هذا بتفصيل ذاك، والحدث الأصغر يندرج في الحدث الأكبر.

سنة ١٧٢٢ فيها قضى القيصر جزءًا من السَّنة في أشغال حرب الفرس، وبنى أماكن خارج المدينة عند أوخته وحارة بكنيسة للنجارين الذين يبنون المراكب.

سـنة ١٧٢٣ فيها، وصل أميران [٧١/و] هيس هومبورغ إخوان، البكري عمره ١٧ سـنة، والثاني عمره ١٦، وسـألا الدخـول في خدمة الروسـيا، وقُبلا، وأعطي لكل رتبة قبطان وستة آلاف رُبل في السنة جامكية[١].

وفيها ٢٦ آذار انسَـرَّ أهل المدينة بفرح أعلن أكثر من سـائر الأفراح، وزاد به للسـكان البسط والانشـراح، وذلك أنه كان للقيصر الكسي ميخا يليوڤيج زورق، وفي سنة ١٦٩١ رآه بطرس، وهو شاب في قرية ازمايلوف قرب موسقو، فولد ذلك في فكره عمل دننما في الروسيا، وبناء هذا القارب المخالف لبناء القوارب المستعملة إذ ذاك في الأنهار جذب ملاحظة بطرس، وسأل عن أصل الزورق.

ولما علم أنه يمكـن أن يعوم ليس فقط بواسـطة المجاديف، لكن أيضًا بواسـطة القلع ضد التيار، وحتى في الريح المخالف، اشـتاق إلى وجود من يعرف أن يُسيره، فكشف في موسقو رجل هولاندي اسمه برانت كان مستعملًا في أيام القيصر الكسـي في الفاريقاطة المسـماة «أرُول» يعني النسر، المصنوعة لجماعـة التَّجارة الروسـية على بحر كيـلان، والمحترقة في سـنة ١٦٧٠، تحت أسـوار اسـتراخان، حرقها قاطع الطريق رازين، لكن برانت تخلص من الحريق، وذهب إلى موسـقو، وآل حاله في مدة عشـرين سـنة إلى الفقـر المدقع، والضنك الموجـع، لا يعيش إلا من صنعة النجارة، فأخذ إلى بطرس، وعمَّر الزورق، ونصب فيه صاريًـا وقلوعًا كافية، وصار مقاطعًا لتيـار لاوزا بمرأى القيصر المتعجب من هذا المنظر الجديد من شأنه.

ومن ذلك الوقت صار برانت معلم بطرس الذي بالسـرعة تعلم مسـك الدفتر بالشـطارة، وصرف أوقات البطالة في التفسح على أمواه [٧١/ظ] لاوزا والبرك التي قرب موسقو. فانظر إلى هذه الحالة التي هي غير مهمة في ذاتها، لكن تولد عنها الفكـر في عمل دننما صارت في حياة مؤسسـها سـببًا لمجد الروسـيا الأثيل، وتمدنهـا الجزيل، وعزها الجليل، وجولانهـا في البحار إلى البر الأصيل «ومعظم النار من مستصغر الشرر».

---

(١) جمع جامكية، وهو: لفظ فارسـي معناه مرتب الجندي أو الخادم، وأُطلق في العصر العثماني على الأعطيات والمرتبات الشـهرية والسـنوية التي يتقاضاها الجند، والجمع جوامك. مصطفى عبدالكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط١، بيروت، مؤسسـة الرسالة، ١٩٩٦، ص١١٩.

فلمًا تم الصلح المسبب لكل المنافع، والذي هو نتيجة هذه الدننما الظافرة في سافكات الوقائع التي هي ساعد المملكة، كما قال مؤسسها بحسن الملكة، وبسببها قُلِد بطرس بنشانات النصر الموفور، ولُقب بالإمبراطور، وسُلِّمَ عليه باسم الكبير، والأب الخطير، لم يكتف القيصر بعد إعلان أيام الفتوحات الناشئة عن اجتهاداته المهمات بمجازاة مشاركيه، ومكافأة معاونية، بل أراد أن تتذكر الذرية جالب هذه السَعادة السرمدية في زمان قليل بالنسبة لهذا الفتح الجليل، فأمر بإحضار الزورق من موسقو إلى شليسلبورغ في ربيع سنة ١٧٢٣، بعدما استراح ٣٠ سنة.

وفي ٢٨ آذار مخرت الدننما المزينة بأحسن زينة في النيڤا، وأطلقت مدافع القلعة، وأرسلت الدننما عند ديرنيفسكي، ومكثت طول النهار، وفي اليوم الثاني، وصل القيصر في الزورق يسيره بنفسه هو وكالوڤكين والرئيس سيناوين، ويتبعه ٩ سفن، فلمًا وصل الزورق أدنت السفن بنديراتها للسلام عليه، وضربت الطرنبيطات، وأطلقت المدافع، ودقت المويسيقى العسكرية.

وفي اليوم الثالث ذهب القيصر في الزورق إلى المدينة، ولما وصل إلى المحل الذي فيه الآن دير سمولني، رحبت القيصرة بهذا الزورق، الذي هو أصل هذه العمارة الكبيرة، ثم لما وصل الموكب إلى مرسى كنيسة [٧٢/و] التثليث، أطلقت المدافع من كل طرف، وسلَّمت العساكر على الزورق بعمل شنك، ودخل القيصر والعائلة الملكية، وأعيان الدولة في الكنيسة للدعا والصلاة، ثم خرجوا، وأطلقت لخروجهم المدافع، وعمل الشنك، ثم عملت وليمة في قصر سينات في غاية النفاسة، ودام في كل هذه المدة الانشراح وشرب الراح، أولاً على صحة القيصر، ثم على شرف الزورق، ثم على شرف ذريته، يعني الدننما، ثم عملت الحريقة في الليل.

ثم بعد هذا الموسم بأيام وضع الزورق في النشف وما جرى «إن السفينة لا تجري على اليابس»، وحفظ قرب مرسى الكنيسة، ولَما علم القيصر تخلف بعض الملاَّحين عن حضور هذا الفرح المتين غرمهم ١٥ رُبلاً لكل سفينة.

وفيها طاب الهواء في نيسان وآيار وحزيران، فكانت الدنّما كل أسبوع تجول في النيفا وتتردد، وكان التفسح إذ ذاك في الزوارق من الحظ المؤكد، إذ لا سرور في هذه المدينة أعظم من طيب الهواء وانقشاع الغيوم وابتسام السماء، وهذا الزورق مكث مدة عيد فيها، فلو كان له نفس ناطقة لكان مسرور البال، أو لسان منطلقة لأنشد بلسان الحال[1]: [الوافر]

أنا والله أصلُحُ للمعالي وأمشي مشيتي وأتيهُ تِيها

وبالجملة فقد صدق من قال[2] :

إني اطّلعت على الدِّيار[3] وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فتارة يحمل في قنجة وتدور حوله الدنّما، وتارة ينزل فيه القيصر ويجدِّف بنفسه، وفي آخر الأمر عملت مسخرات أسبوعًا لإشهار النصر أيضًا، فانظر كيف اعتبر القيصر هذا الصلح الكثير [٧٢/ظ] المنفعة للروسيا، وأنزل الزورق في القنجة وعام والدنّما تشيّعه حتى وصل إلى باب القلعة، وأخرج إلى السّاحل، وسلّم لحاكم القلعة ليحفظ فيها تذكرة للدنّما، وهذا الفرح المصنوع لهذا الزورق كان كثير المصرف جدًا، فالبارود المحترق وحده كان ثمنه ١٢٠٠٠ رُبل، والقارئ يفهم عظم هذا المبلغ في ذلك الوقت، ومع أن بطرس كان يحب التدبير في المصرف، لكن هذا عيد أساس العمارة التي بها شرفه، ولذلك سمي هذا الزورق جد الدنّما.

وفيها وصل سفير الفرس، ومعه تبع ثلاثون نفرًا، وأُطلق لقدومه المدافع وشيّعه العسكر إلى البيت المعدّله وقبله القيصر، وكانت نتيجة هذه السفارة اعتراف الفرس بترك خمسة أخطاطها للروسيا، وهي ضاغستان

---

(١) هي: ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن النّاصر. توفت في حدود سنة ٤٨٤هـ. الصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج ٢٧، ص ٤٥٠؛وابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ، مصدر سابق، ج ٤، ص ص ٢٥١– ٢٥٣. والبيت في الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج ٢٧، ص٤٥٠؛ وفوات الوفيات، مصدر سابق، ج٤، ص ٢٥١.

(٢) هو:محمد بن محمد بن حسن، أبو بكر، جمال الدين، ابن نباته المصري. توفي سنة ٧٦٨هـ. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، مصدر سابق، ج ٤، ص ص ٢١٦– ٢٢٣.

(٣) في ديوان ابن نباتة المصري: وإذا نظرت إلى البقاع. انظر: ديوان ابن نباتة المصري الفاروقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ص١٦١.

وشيروان وكيلان ومازندران واستراباد، ومن الأبنية في هذه السَنة بيت كبير من الحجر في وسيلي اوستروف لأجل المدارس، وهذه البنية أكبر ما بني في هذه الخمسة والعشرين سنة، وهي موجودة إلى يومنا هذا دليلاً شاهدًا على سرعة زيادة المدينة، وكذلك موجود الآن بيت بطرس الكبير، وقصر في جنينة الصيف، وكنيسة التثليث، وجزء من أكديميا العلوم التي كانت قصر الملكة براسكوفيا فيدروفنا وتپرباولوڤسكي، وفيها كان مدخول المدينة ٥٨٠٠٠٠ رُبل، مدخول خمسة بيوت الآن، وفيها مات الأمير بوتورلين، وحضر مشهده أهل القصر، وقبل إخراج جسده من البيت شرب الحاضرون على روحه كؤوس الخمر، وبعد الرجوع تغدوا في بيته وشربوا كذلك الخمر على روحه [٧٣/و] سنة ١٧٢٤.

من أعظم الأبنية فيها أكديميا العلوم لتعليم أشخاص يكونون علماء في المملكة، ولتصنيف الكتب النافعة، وحل المشكلات، وكتابة الوقائع والتاريخ، والملاحظات المتعلقة بالروسيا، وهذه الأكديميا تتركب من رئيس واثنى عشر عضوا ماهرين في أنواع العلوم، وكاتب وناظر كتب، وأربع مترجمين، واثني عشر تلميذًا، وعين للأكديميا ٢٤٩١٢ رُبل، ودعي كثير من العلماء المشهورين الغرباء للدخول فيها ليكون من أعضائها، وكان بعضهم على جناح السفر إلى بتربورغ، لكن اللّه ما أذِنَ لمؤسس الأكديميا أن يعيش زمانًا طويلاً حتى يرى مجلس فتحها الذي ما كان إلا بعد وفاته ٢٥ كانون الأول سنة ١٧٢٥.

وذلك أن الأشغال الناصبة والحركات اللازبة أضعفت القيصر وأوهن جسمه، وألجأته إلى أن يسافر أوائل نيسان سنة ١٧٢٤ إلى الماء المعدني في أولونيتز، كما هي العادة في مداواة المرضى بالذهاب وشرب الماء المعدني مدة من السَنة، خصوصًا في الربيع، ونفسه المتعودة على الأشغال ما رضيت براحة البال، بل اشتغل في مدة هذا العلاج بخفة من العاج، وأرسلها إلى بتربورغ في كنيسة القلعة، ثم نقلت بعد ذلك إلى قاعة العجائب، ومنها إلى كونست كامير في الأكديميا، وحفظت إلى هذا الوقت، هي وعدة أشياء منسوبة جميعها إلى بطرس الكبير.

ثم رجع القيصر من أولينتز إلى موسقو، وأشهر تتويج القيصرة بعده، لأن الموت لم يُبق له ذكرًا وارثًا للتخت، ثم رجع إلى بترِ بورغ، وزار قصوره الحظية في بترغوف وغيرها، ثم لما أتم لقومه [٧٣/ظ] الصلح على أحسن الأنواع بعد الحرب الغول ذات الأوجاع، وأراد أن يقدس في وجه عالمه الأرض التي اشتراها بلحمه ودمه التي كانت عرصة الخطوب، ومعترك الحروب، عزم على نقل عظام الأمير الكبير إسكندر النيفسكي من فلاديمير إلى بتربورغ، ودفنها في الدِّير المبني بهذا الاسم؛ لأن هذ الأمير قبل ٤٨٠ سنة كان غلب السويد وتوج بالنَّصر، وعمل موكب عظيم لهذه الواقعة، وذهب العظام للقاء العظام من سبعة فرست من الدِّير، ووضعته في السَّفينة التي مسك القيصر دفتها، وشجعان دولته جدفوا إلى الدير، وأطلقت المدافع، ودقت النواقيس عند إخراج النعش الذي رفعه القيصر وأعيان الدولة، ووضعوه تحت قبة من القطيفة التي تعلقت بأهدابها الأمراء، والقسس شيعوا المشهد في لباس فاخر على القنطرة الجديدة المبنية بالخصوص على تسورن ريتسكه، يعني النهر الأسود، ودفن بمرأى الخاصة والعامة في ٣٠ آب، وأمر أن يشهر كل سنة هذا اليوم السَّعيد على الروسيا، وأن يعوم فيه الزورق الذي قدمنا ذكره آنفًا.

ومرض القيصر الذي ظهر عند رجوعه لم يزل في ازدياد طول هذه السنة، ولهذا ما فارقته الأطباء، ولما وجد بعض خفة في شهر أيلول عزم في أوائل شهر تشرين الأول على الذهاب في سفينة لمباشرة أشغال خليج لادوغة مع منع الحكيم له لكن لازمه، ومن هناك ذهب إلى معمل الحديد في أولونيتز، وطرق بيده صفحة حديد وزنها ٣ پود، وهي محفوظة في كونست كامير مع مخلفاته.

ثم رجع [٧٤/و] إلى لاختا في عشية مطِرة كثيرة الرياح، فرأى في البحر زورقا آتيًا من كرونشتاد يلعب به الأمواج، وقف في الرمل، فأرسل لإعانته زورقًا، ولا زال مُتَبعه نظره فلاحظ غلبة الموج للجميع، وأخذته الرقة، فلم يقدر أن يبقى ناظرًا بلا فائدة، ونسي مرضه وألمه، واندفع في زورق، لكن الرمل منعه من القرب من الزورق الراسخ؛ فنزل في الماء إلى الحزام بلا حزم لفرط الرأفة وعوم الزورق وأذهب الرجفة، وهذه الرقة الأبوية والشفقة الرحمانية حركت

ساكن المرض، وضاعفت الضعف والمرض، وألجأته إلى لزوم الفراش، وكانت سببًا لاختزام المنية وفراق المعاش، فلما ازدادت علته في ١٦ كانون الثاني سنة ١٧٢٥، روجعت كل الحكماء الموجودة في بتربورغ، ولكن إذا جاء الأجل بطلت الحِيَل:

[مجزوء المديد]

كلُّ شيءٍ قاتلٍ حين تلقى أجلَك [١]

ثم في ٢٦ وجد خفة لإملاء بعض فرمانات، لكن في ٢٧ ثقل عليه العياء، وأراد أن يكتب، لكن وقعت من يده الريشة، وآذنت بدنو فراق المعيشة.

وفي ٢٨ انطفأ بموته شهاب الروسيا الثاقب، راجم شياطين الأوهام الكواذب، وخسف بدرها المنير بعد أن تكامل وتناقص حتى حاوله المحاق وزاول:

توقَّى البُدُور النَقْصَ وهي أهِلَّةٌ ويبدو عليها النقصُ وهي كوامِلُ [٢]

وكسفت شمسها المنيرة في الآفاق، ففاضت عليها بسحاب الدموع الآماق، فسبحان من لا ينفد مُلكه، ولا يبقى إلا ملكهُ، له الحكم وإليه ترجعون.

(١) يُنسب البيت إلى السلكة أم السليك من شاعرات العرب في الجاهلية ، في : ابن سعيد الأندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق نصرة عبد الرحمن ، جـ ١ ، مكتبة الأقصى ، الأردن ، ص ص ٤٣٧ – ٤٣٨ .

(٢) نُسب البيت لأبي العلاء المعري عند ابن خلكان: وفيات الأعيان ، مصدر سابق، ، ج١، ص ٤٥٠.

لما انتقل القيصر بطرس الكبير إلى الدَّار الآخرة، وأبقى اسمه مخلدًا ومفاخرة، خلفته في الجلوس على تخت المملكة المتينة زوجته يكترينه، وقد سلكت نهج زوجها، فوضعت المملكة في أعلى أوجها، وبنت قريبا من مائتي مدينة، وملكت قريبًا من ثلثي بلاد الليه الحصينة، وبهذا السبب ما زادت في بتربورغ من الأبنية ما يستحق التسمية، ثم جلس بعدها على التخت بطرس الثاني حفيد بطرس الكبير الأول، وكان عاش طول عمره تقريبًا في موسقو، وقد أمر بعمارة بعض جزائر، وبنى في شارع نيفسكي كنيسة اللوتيريانين، واتخذ قصر منيشيكوف في وسيلي أستروف مسكنًا له، وسماه بتسمية نوفوپري أوبراژانسكي، والقيصرة حنا يوحا توفنه[1] أظهرت رجحان بتربورغ، وأبدت ذلك بأفعالها، واختارت لسكانها قصر قبطان باشا القونت ايراكسين على النيڤا قرب الترسانة الذي أعطاه له القيصر بطرس، وبأوامرها أحيط بجدران من الحجر، لكن غير لطيفة، وبخندق عميق، ثم هدم بعدها، وبني محله قصر الشتاء، وهي التي أمرت بصنع الهلال الكبير المذهب اللامع على برج الترسانة، وهذا الهلال يهتدي به من لا يعرف حارات بتربورغ.

وفي زمانها أيضًا عمقت مويكه، وبنى محل كبير للعسكر عند قنطرة إسماعيل، وبدل بيوت الخشب القديمة كانت بيوت الحجر، وفي ذلك الوقت صدر الأمر العالي بأن في حارة مليون، وعلى الساحل [٧٥/و] القصري لا يبنى

(١) إمبراطورة الروسيا هي بنت (إيوان) أخي بطرس الأكبر، ولدت سنة ١٦٩٢ وتوفيت سنة ١٧٤٠، تولت ملك روسيا سنة ١٧٣٠ حتى ١٧٤٠، عقب وفاة بطرس الثاني، واتحدت مع النمسا في مسألة وراثة بولونيا، ونجحت في انتخاب أوغست الثالث ملكا لها، وحاربت الترك من سنة ١٧٣٥-١٧٣٩. للمزيد انظر: محمد فريد بك المحامي ، مرجع سابق، هامش 1، ص323، Moss, Walter G., A History of Russia, Second-Edition, Vol.1: to 1917, Anthem Press, 2005,p.257-258.

غـير بيوت الحجر، ونقل بيـت الأجزاء من القلعة إلى حـارة مليون، وزيدت عدة الكنائس ببناء كنيسة «الصعود» التي سميت باسمها حارتها فوزينسيكي أوليسًا، يعني «حارة الصعود» وصورت القيصرة بنفسها الحارات.

وفي سـنة ١٧٣٧، مـا كانـت تجـاوزت بتربـورغ مـن ناحية الجنـوب حدود فونتانكـه التي لا تتميز بحسـن الأبنية، وفي الجهة المسـماة فيبورغسـكي سـترنا مـا كان زيادة علـى معمل البـوزة الهولانـدي المنقلـب إلى أكديميا الحكمة والجراحة إلا حارتين أو ثلاثة، وكنيسة سامسون.

وفي ذلك الوقت كان الشـغل دائرًا في حارات وسـيلي اوسـتروف المسـماة الخطوط، وما كان جاهزًا حقيقة إلا الأول وبتربورغ القديمة، كانت كثيرة السـكان، لكن جزيرة الأجزاء التي يغرقها من بتربورغسـكي سـترنا خليج كاربـوف لم تكـن إلا خميلـة عريضـة غلبـاء منظفـة مملـوءة ليـس فقط بالنباتات الغريبة والأوربية، لكن أيضًا بالنباتات الآسية والأفريقية المحفوظة بغاية الاعتناء.

ولم تـزل القياصـرة تعتـني ببتربورغ الـتي صارت تخت المملكـة الجديد، لكن بلوغها إلى هذه الدرجة التي نراها الآن من الفخر والنظافة والحسن، اقتضى زمانًا طويلًا ومالًا جزيلًا، وتعبًا جليلًا، وذوقًا جميلًا واليزبيت على الخصوص اعتنت بها، ففي أيام ملكها شـادت كنيسـة نقولة البحـري المفتخرة بقباب مذهبة، ومنارة كبيرة للناقوس، وكنيسة الخلاص في سينوي، وعلى ساحل النيڤـا أمام أوختـا عند حوش سمولـني دير التثليث للنسـاء، وكنيسـة[٧٥/ظ] التثليـث المشـهورة التي بناهـا المهندس المشـهور القونت رسـتريلي، وهـذا المعبد الكبير بقي ثلاثين سـنة بلا أبواب ولا شـبابيك، وكمـل بهمة أبهة القيصر الحالي نقولة الأول[١].

(١) وُلد نقولا الأول عام ١٧٩٦، وكان قيصرًا لروسـيا خلال الفترة (١٧٩٦-١٨٥٥)، عُرف عنه الحكم القاسـي، وله العديد من الإصلاحات حيث صدرت أول مجموعة قانونية روسـية حديثة بموافقته عام ١٨٣٥، ووافق على تحسين أوضاع الفلاحين، وساند بناء سكة حديدية في روسيا، تُوفي عام ١٨٥٥. لمزيد من التفاصيل راجع: فراس البيطار، الموسـوعة السياسية والعسكرية، ج ٣، دار أسامة للنشر، عمان، الأردن، ٢٠٠٣، ص ١٠٢٧.

وهذا القونت قد زين المدينة في أيام القيصرة إيليزبيت بقصر انيتشكوف في سنة ١٧٤٨، وابتدأ قصر الشتاء في سنة ١٧٥٤، وكمل في سنة ١٧٦٢، بعد موت القيصرة، وفي سنة ١٧٥٥، وُضع أساس غوستيني دفور يعني قيسارية التجار، ولكن أكلته الحريقة، وما كمل ووصل ووصل إلى هذا المنظر الجميل الذي هو فيه الآن إلا في مملكة كترين ووصل إلى هذا المنظر الجميل الذي هو فيه الآن إلا في مملكة كترين الثانية سنة ١٧٨٥، وكترين الثانية اعتنت جدًا ببتر بورغ وكبّرتها وحسّنتها، واجتهدت في فعل كل الوسائط التي صيرتها أول مدينة في الدُنيا.

ففي أيامها، بلط ساحل النيڤا بالحجر الصوان بغاية الإحكام والإتقان، وكذلك سواحل الخلجان، وعملت بالوعات في الحارات، ومهدتها بالتبليط اللطيف، وعملت لها مماش موصلة إلى القصور الخارجة عن المدينة، ولأجل إحياء هذه الطرق التي في وسط الغابات وتسهيلها، وزعت هذا الفضاء إلى الأبنية القريبة منه في كلا الطرفين إلى اتساركي سلو وستريلنا وبترغوف، وأبيات الصيف اللطيفة بحدائقها الظريفة وغدرانها الصافية، وعيونها الجارية، وزينت بتر بورغ من ناحية ريغه بباب النصر العظيم، وزاد عدد قصور الخط بباڤلوڤسكي وغاتشين، وبنيت ثلاث قرى نيمساوية حول المدينة، ووضعت أثر البطرس الكبير ممدن الروسيا، وكتب عليه لبطرس الأول من كترين [٧٦/و] الثانية.

وفي مملكتها ازداد قصر الشتاء عظمًا وحسنًا ومعنى، وزين زينة خضعت لها الثريا، وهذا القصر العظيم، مربع الشكل قليلًا، وطوله ٦٥ سجين وعرضه ٥٠، وسمكه نحو ١٢، وفي وجهه الأصلي فرجة كبيرة جدًا في الوسط مكشوفة، والدور الأول يسكنه الخدمة والمقدمون و نحوهم، وفي الدور الأخير يسكن الأعيان من الرجال والنساء الذين يسكنون دائمًا في القصر، وفي الدور الوسطاني مقعد كبير فيه مجلس القيصر للسفراء، وعمل الخدم والعبادات القيصرية.

وهنـاك مقعـد الرقص ومقعد المرمـر ومقعد جرجيس المزيـن برايات كل العسـاكر وبيارقهم، ومقعد التخت؛ لأن فيه تختًـا عظيمًا على الذوق القديم بأربـع درجات مغطـى بالقطيفة الحمـراء، وهذا التخت يـتركب من كرسـي عظيـم مغطى أيضًا بالقطيفـة الحمراء وقبة مزينة بالتـاج القيصري، وكل التاج القيصري الكبير مسـبوك من العسـجد، وفي خلالـه القطيفة الحمراء، ومرصـع بالجواهر، وأعلاه مرصـع بالياقوت الكبير كبرًا خارجًـا عن العادة، والتـاج الصغـير مرصع بالألمـاس ورأس قضيـب المملكة مرصـع بقطعة ألماس كبـيرة اشـترتها القيصرة كترين الثانيـة من الرومي سافراتسـيا بثمن قدره نصـف مليـون رُبل فضة، يعـني بمليون وثمـان مئة ألـف رُبـل ورق؛ لأن الرُبل الفضة في زمان كترين كان يساوي ٣ رُبل، و٦٠ كبيك، والآن يساوي ٣ ربل و٥٠ كبيك، وعبرة ذلك بالقروش الرومية ٩ ملايين قرش؛ لأن الرُبل يسـاوي ٥ قروش.

والعسـكرة القيصريـة مرصعـة إلى أكثر من النصـف بجواهر ثـمينة مختلفـة النـوع[٧٦/١ظ] والمقعـد الفيلد مارشـالي مزين بصور الفيلد مارشـالات الروسية الملقبين بهذه الألقاب، زادونايسـكي وزيمنيكسـكي وإيريڤانسكي بسبب نصرتهم.

والمقعد الحربي، يعني مقعد سـنة ١٨١٢، وجدرانه مرصعة بصور الشجعان الذين حاربوا لأجل الوطن، وهو بين المقعد الأبيض، ومقعد جرجيس متسع جدًا، طولـه ٧٧ ذراعًا روسـيًا، مقبب بغاية الصناعة، وفيه صورة القيصر اسـكندر علـى الحصان الأبيض الـذي ركبه لمـا راح باريز، وفي زمـان كترين كانت التحف والجواهر القيصرية، وخواتم الألماس والمنشـقات الذهب المرصعة بالألماس والنشـانات والرايات والشـيش بقبضة ذهـب، وغير ذلك في دواليـب أبوابها من الزجاج موضوعة في قصر الشـتاء، لكن الآن هذه الأشـياء محفوظة في الأوضة القيصرية في قصر اينشكي.

قلت: قصر الشتاء هو محل إقامة القيصر وحاشيته في الشتاء، وهو من عجائب الأبنية، وظاهره ليس محلى بالألوان كغيره من العمارات اكتفاءً بحسن شكله ولطف هندسته[1]:

[الطويل]

وما الحلى إلا زينةٌ لنقيصةٍ ... يتمّمُ من حُسنٍ إذا الحُسنُ قصّرا
فأمّا إذا كان الجمالُ موفّرًا ... كحُسنك لم يحتَجْ إلى أن يُزوَّرا

وقد دخلته مرات، وفي أول كل سنة في المساء يفتح ويؤذن لعامة الناس ذكورًا وإناثًا بالدخول بأوراق أكثر من ثلاثين ألفًا، ويسمى ذلك رقص المسخرة، وليس في الحقيقة رقصًا، إنما هو تفسح، فتدخل الناس في المقعد الأبيض ومقعد المرمر، وبعض مقاعد أخر كبيرة للغاية، فما ألطف هذه[٧٧/و] المقاعد وأبهجها، وفي أركان بعض المقاعد أواني من الذهب وأشياء عجيبة وصور غريبة، وفي هذه الليلة يدور القيصر يتفسح مع عائلته، ويرى قومه كالأب الشفوق مع أولاده، ويكثر الزحام جدًا حيث القيصر وعائلته، بسبب أن كل شخص يتمنى رؤيتهم، فهو حقيقة محبب في قومه لا يشبع من رؤيته، سواء كان في القصر أو في غيره.

ومن جملة من يرى من الناس، الكرج[2] والشراكسة والتاتار في لباسهم الأصلي، وهناك بعض سودان من خدمة القصر، وكل من أراد الشاي، أو شراب العسل، أو بعض مآكل، ذهَبَ إلى المحل المعد لذلك، وأكل ولا يدفع شيئًا، وقد أصابت هذا القصر عين الكمال فاحترق، وما قدروا على إطفاء النار منذ عشر سنين، لكن همة ساكنه القيصر الحالي أعادته إلى رونقه الأولى الحالي، بل أحسن في أسرع زمن، ومن مدة سنوات سقط سقف مقعد جرجيس، لكن عمّر بالسرعة.

---

(١) البيتان للسان الدين ابن الخطيب، ت ٧٧٦ هـ . المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، ج٥، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٦٥.

(٢) هي مدينة تقع ما بين همذان وأصبهان في نصف الطريق، وإلى همذان أقرب. ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج٤، ص ٤٤٦.

وهذا القصر كالمدينة في الكبر والاتساع، وقد ذهبت عند بعض المعارف الساكنين فيه، فعددت مئة سلم، مع أن هذا المعرفة ليس ساكنًا في الدور الأخير، والمحل المحرم دخوله مطلقًا، إنما هو حيث يسكن القيصر والعائلة الإمبراطورية، أما المجال الآخر فكغيرها يجوز لمعارف سكانها أن تزرها.

وفي شهر آيار حين يذهب القيصر وعائلته إلى اتساركي سلو وبترغوف لتقضية الصيف، هناك يجوز الدخول بأوراق في مسكن القيصر والعائلة الإمبراطورية؛ للتفرج على هذه البنية العجيبة، وما فيها من البدائع الغريبة والذخائر اللطيفة.

[٧٧/ظ] وفي سنة ١٧٦٨، وضع أساس كنيسة إسحاق، لكن غيّر هندستها القيصر إسكندر الأول إلى أحسن، ثم تلاه أخوه القيصر الحالي، وفي طول مدة أيامه، والشغل فيها دائر، وهي الآن على طرف التمام بقبابها المذهبة العظام، شاهقة العلو والارتفاع، محكمة الأبنية والأوضاع، خصوصًا القبة الوسطى الكبرى، فإنها تكاد أن تنال الشعرى، ولا يمكن الوصف أن يحدها لا نثرًا ولا شعرًا، بل العين وحدها بصحائف هذه المحاسن تقر حين تقرأ.

وفي سنة ١٧٦٨ وضع درابزي كبير عجيب الوضع حسن الصُنع حول جنينة الصيف، وهو يسحر عقول الوافدين بحسن سبكه، وفي سنة ١٧٧٠ ابتدى قصر المرمر على النيڤا، وكمل في سنة ١٧٨٣، وهو يتميز على الخصوص بأنه لا يوجد فيه أصلًا خشب، بل بمثابته دائمًا المرمر والصوان والمعادن، وتبدل بهذه القصور والأبنية الحسان الصحارى التي أحاطت بالنيڤا، وكذلك بني قصر الأمير تورپيسكي الذي أسس دننما البحر الأسود، وفتح بندروا وچاكوف، وضم القرم إلى الروسيا، وفي شأنه قالت كترين الثانية: «هو وحده يفهم مقاصدي».

وغرس في هذا القصر جنينة الشتاء المعروفة الآن «بجنينة توريد»، حسنة للغاية حتى أنه لا يباح لكل الناس دخولها إلا بورقة إجازة لئلا تفسدها العامة، وفي هذا القصر سكن عباس مرزا حين أرسل سفيرًا إلى بتر بورغ من طرف شاه الفرس، وعمل الأمير پوتومكين وليمة عظيمة لكترين، ولما مات پوتومكين أوصى بهذا القصر إلى كترين، وهي تشريفًا له سمّت القصر «قصر توريد».

وكترين الثانية اعتنت أيضًا [٧٨/و] بإحياء العلوم والصنائع، فشادت أكديميا التصوير على ساحل النيڤا الشمالي، وأحسنت وضعها الذي بقيت عليه إلى الآن، وهي كبيرة شاهقة في العلو، فيها كثير من الصور البديعة، وفي كل سنة تزداد لاعتناء هذه البلاد بهذا العلم حتى يسمونه الصنعة النفيسة، وأمامها على ساحل النيڤا صنمان كبيران من الحجر يسميان أبوي الهول، جُلبا من مصر سنة ١٨٣٢، وتحتهما سبعان من الحجر، فهما على الحقيقة مسلياني في هذه المدينة، إذ ليس من بلدياتي أحد غيرهما فيها.

وقد سُئلت مرة: هل لي بلديات في هذه المدنية؟ فقلت: نعم لي، فقيل: من؟ فقلت أبو الهول، فضحك السائل.

وفي سنة ١٧٨٤ إلى سنة ١٧٩٠، بني على هذا السَّاحل أكديميا العلوم، لكن أقل علوًا، وفي هذه الأكديميا العلماء الروسيون والغرباء، وينتسبون إلى الأكديميا فيسمون الأكديميين، وكل منهم مشتغل بصنف من العلوم، بعضهم بالرياضيات مثل مسيو بنياكوفسكي، وبعضهم بعلم المعادن مثل مسيو كفَر، وبعضهم بالعلوم بالشرقية مثل مسيو فرين، فإنه مشتغل بالعلوم المتعلقة بالشرق من معاملات، وتاريخ و نحو ذلك.

ودائمًا تسافر الأكديميون على مصروف الميري لكشف بعض الأشياء، كما يسافر مسيو كفَر إلى سيبير محل المعادن، ومسيو بروسي إلى تفليس[1] لتحقيق «تاريخ الكرج وآثارهم»، وفي آخر سنى مملكة كترين، وضع أساس بيت مكتبخانة العمومية الحجري في شارع نيڤسكي، وبنى التياتر الكبير الذي كان أولاً في سوق سنوي [٧٨/ظ] مزينًا لحارة الجنينة، مثل اللِّعبة، ومحله صار القومبانية: يعني مستودع المال، والسَّلف بالمكسب وبالجملة، فكترين الثانية أكملت زينة هذه المدينة السَّامية، ورقت المملكة إلى أعلى درجة، وهمتها كانت بهمة الرجال مزدوجة، بل أعلى من همة الرجال، وحق فيها قول من قال[2] :

(١) تفليس : هي أكبر مدن الكرج.
(٢) البيت منسوب للمتنبي: الديوان، ص٢٥٧.

ولـو كان النِّسـاء كمـن رأينـا [1] لفُضِّلت النِّسـاء على الرِّجال

ومـع أن تملـك القيصـر بولـص كان قصـير المـدة، لكـن كان نافعًـا لبتربورغ؛ لأن هذا القيصر بنى عدة مسـاكن لطيفة للعسـكر ولتعليمهم، وبنـى في وسـيلي أوسـتروف مدرسـة البحـارة، وكمـل بيت تعليـم الأطفال اللقطاء، وبنى بيتًا لسـقط العسكر في جزيرة الحجر، وبعض قشلات وبيوت لإيـواء الفقراء الطاعنين في السـن، وبنى قصرًا عند جنينـة الصيف صار بعده مدرسة المهندسين، وبنى في شـارع نيفسكي محلاً للتجار يسمى «دومه»، وزينه بـبرج مربع، وبلط سـاحل مويكه في طول ١٥٠٠ سـجين، وزين كثيرًا شـارع نيفسـكي الذي كان إذ ذاك في وسـطه بولڤار ، يعني سـطور من الشـجر لإظلال الماريـن، ووضع لجـده الكبير بطـرس الأول أثرًا أمـام قصره، وأثر رومانتسـوف في المـرج القيصـري، لكن نقل بعد ذلـك أمام أكديميـا التصوير، ومكتب كديت، وأسـس أيضًا أكديميا الطـب والجراحة، ووضع لكنيسـة كزان الأساس، وكملها بعده وارث تخته، وولي عهده القيصر اسكندر الأول[2] الذي بنى الممشـى على النيڤا أمام جنينة الصيف، ونصب (٧٩/و) قنطرة ترويسكي قـرب جنينـة الصيف، ونصب في المرج القيصري أثر سـوڤاروف في سـنة ١٨٠١، ليس بعيدا من قصر المهندسين وقشلة للبحرية، واينيستيتوت كترين لتعليم البنات الأكابر، وعند شـارع فوسكريسنكي بنى كنيسة المصابين، ومن أعظـم مبانيه قصـر الوزارة، ودواوين الأشـغال بقبوته العظيم الـتي فوقها صور خيول، وهو عظيم جسيم يشتمل على أقسام منها: الديوان الأسي، وهذه البنية العجيبة أمام قصر الشتاء وبينهما ميدان.

وأمـا القيصـر الحالي نقولـه الأول، فإنه ما قصـر عن سـلفه ولا أبقى تعبًا لخلفـه، إذ قد صـرف اجتهـاده إلى ما يكمل المدينـة والمملكـة، فبنى تياتر ميخائيل والتياتر الإسـكندري الذي بناه باسـم زوجته القيصرة إسـكندرة، ومجمـع الأعيان، وقد عبث بـه بنان الحريقة منذ سـنين، لكن تدورك الخطر

(١) في الديوان: فقدنا.
(٢) للمزيد عن فترة حكمه انظر: Moss, Walter G., Op. Cit., p. 334.

وتلوفي الضرر، وبنى عدة حارات منها حارة مورسكوي وكاراڤاني، وأحدث يلڤارا جديدًا في طرف حارة غالدني، ومن أفعاله الجميلة تبليط شارع نيڤسكي بقطع الخشب المسهلة لجري العربات، وأمره بقلع الأشجار التي كانت في ذلك الشارع، وتبليط محلها ليتسع الممشى، وهذا عين الصواب؛ لأن هذه الأشجار كانت في الشتاء ثقيلة المنظر، مضيقة المعبر، وفي الصيف لا حاجة لها في ذلك المحل، للاستغناء بالخبائن عنها [٧٩/ظ]، ونصب في الميدان أمام قصر الشتاء عمودًا شاهقًا في العلو كله من الصوان المائل للدهمة أثرًا لأخيه إسكندر الأول، ليس له في الدينا نظير، وهو أطول من ٣٣ سچين، فهو أطول من جميع الآثار الموجودة في الدنيا حتى من عمود الصواري بإسكندرية، والحجر الكبير جلب إلى بتربورغ في سفنية مبنية له بالخصوص ١ تموز سنة ١٨٣٢، وأخرج إلى الساحل ١٢ تموز، ورفع بإعانة عسكري الخفر الذي له صفيحة الفخر سنة ١٨١٢.

وفي ١٣ آب، وإلى نصف سنة ١٨٣٤، حصل فيه الشغل، والعمود كان أولاً مغطى بالأشجار، وبعد ذلك هذا الأثر الباقي ظهر لكل عين في يوم عيد اسم اسكندر ٣٠ آب سنة ١٨٣٤، تحفة سنية لهذا العيد الكبير، وسحرًا يخطف أبصار الجم الغفير، وقاعدته أيضا من الصوان، وعمل موكب عظيم حفل، وعملت وقدة في المساء في الميدان، والحارات، ومن جهة قصر الشتاء مكتوب عليه الروسيا تشكر إسكندر الأول، وعلى أعلاه معلق صليب كبير، وصورة ملك ماسك الصليب بيده اليسرى واليمنى مشيرة إلى السماء، ويفعص برجله ثعبانًا، وحوله الآن فينارات تولع بالجاز كل ليلة، و يحسن هنا إيراد القصيدة الفارسية التي قالها في هذا الأثر صديقنا وعزيزنا الجنرال مرزا جعفر طوبجي باشا معلم اللسان الفارسي في المدارس القيصرية ببتربورغ، وها هي مثنوي :

أزين درسكنتم كهي درستوه — كه يك قطعه سنكست اين ياره كوه
بكاخ سيهرش ستون ساختند — خرد خيره كردوكه جون ساختند
جه كغتم بكردون ستون كرواست — مكر سوى افلاك راه دعا است
[٨٠/و] ازين به بمطلب نبا شدكواه — كه باشد ملك رابوش جلوه كان
بلى دربر هيكل اين ستون — ستون بيستونست وانن بستو
نه وهم شتابان وفكر بلند — برار دور اسرابز كمند
نظر رابسرعت به يحشنى شود — به ست يلي اين نشان
شند جند جاتا باوجش رسد — بنام يكي ينونوشين روان
بمهر برادر برادرز مهر — جومهر فروزات بطاق سيبهر
برافراخت اين ناموريا دكار — برافروخت اين مشعل روزكار
بسي بكرزدكز نشان جنين — بنازد بكيتي بساط زمين [1]

وكذلك قصيدته التركية وهى مثنوى:

بونه شوكتلومها بتلو بنادر كورنن — ياكم افلاكدره شكر وثنادركورنن
يابوكيم طاق فلكدن آصلوب قنديل وار — ملك قرق شكوه آنده اولوب مجمره دار
ياكه مشعل قونولوب محفل اهل زمنه — برتوشوكت وابهت صالوب هرابخمنه
حرت هفت عجائب جهان او لدى بوكون — غيرت جملة غرائب زمان او لدى بوكون
اى شاهنشاه قدر قدرت وفرخنده نشان — بازوى سلطنته قوت وهم جسمنه جان
حقدن امنداد ككه البتة كه شاهد بويتر — كه او لوبدر سكا منقاد دخى بحريله بر
كوه فنلا دبلوب عزمكى يردن قوبدى — بحر بلطق ايشدوب امر كلا يجون يراويدى

(١) تم ترجمتها في كتاب محمد عيّاد الطنطاوي، تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا، قدّم لها وحرّرها د. محمد عيسى صالحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٨٣. تسيطر عليَّ الدهشة أحيانا... ويمتلكني العجب. مما يجعلني أتساءل أهو حجر واحد أم جزء من جبل. ذاك الذي صنعوا فيه عامودا لقصر الملك، عامودًا يحار العقل في كيفية صنعه. ترى ماذا أقول لو أدرت الحديث عن هذا العمود؟ يجدر بي أن أقول إنه طريق توصيل الدعاء إلى السماء. ولا أول على هذا من صورة الملك المنقوشة عليه والمتوجه لأعلاه أجل، إن هيكل هذا العمود يذكرنا بنفس بيستون فعن طريقه يدرك ذوو الحجي– دون وهم– كيف تلحق الذلة بالأسرى. وترى العين على الفور دليل ذلك. حين تشهد الصليب وقد رفعته يد الملك لأكثر من سبب تم الاحتفال.. وقد جاء تخليدا لذكرى راحل عظيم بالحب أحيانا هذا ذكرى أحد العظماء

[٨٠/ظ] آلوب آغوشنه اولداغى نوايه يتوروب يعني كيم ساحل درياى نيوايه كوتوروب
دروب او زرنده ملك اشته اشارت ايل قالدروب ال كوكه بونكتني كويا سويل
كه كيمك عد ليله عالمده ايشى اوله بنام ملكوت فلك البته اولا اكامقام
بويله برخسرو باحشمت ويرهمت ومهر ساحه دولته سايه ينجه كيم مهر سبهر
ابله بربادشر نامورك ياد يجوت ذكر خيري بلد اول دادكرك آد يجون
بيش افرواج بلا سد سكندرد يكدى مظهر حسرت هل ملت وكشور ديكدى

ومن مآثر هذا القيصر طريق الحديد التي حدث فيها الشغل من مدة سنين بين بتربورغ وموسقو، وإلى الآن ما تمت، وكذلك القنطرة المثبتة، وكان فيها الأشغال في مدة الجليد بدق الأخشاب في الجليد، والأعمال الشاقة، وقد تمت الآن، [٨١/و] وفي أيام بطرس الكبير ما كانت على النيڤا قناطر بالكلية، وكانت الناس تعدي على القوارب، كل شخص يدفع كبيك، لنفع الخزنة أو أحسن لنفع المدينة، وعلى مويكه وفنتانكة كانت قناطر نقالة يمكن رفعها، لكن لا يمكن أن يمر عليها أكثر من عربة بفرسين، وأما الأن فعلى فونتانكة ومويكة من كل جهة قناطر في أعلى ما يكون من الحسن والإحكام من الحجر الصوان والدرابزي الحديد الذي في غاية الذوق، وكذلك على جميع الخلجان، والكل كالنيڤا مرصَّع الحوافي بالحجر الصوان العريض، مرصف تمر على هذه القناطر العربات الكثيرة، وهناك قناطر صغيرة للمشاة.

وقد أمر القيصر سنة ١٨٤٠، بتعريض قنطرة انيشيكوف مع أنها محكمة إلا أنه لاعتنائه بتحسين مدينته أراد تعريضها بعرض الشارع؛ ليكون المنظر أجمل، ففعل ذلك ودام فيها الشغل نحو ٨ شهور، ولما فرغت أغلقت أبوابها ، واجتمع محفل عظيم من الناس، ولما وصل القيصر راكبًا في كاروصته قيل له هيت لك، وفتحت له أول مرة، واستمرت مفتوحة إلى الآن، ووضع على أطرافها الأربعة أربعة خيول كل بقائده العريان، وقلت في ذلك:

وضعـوا بأطـراف القناطـر إذ بـدت ... خيـلاً مصـورة بأحسـن منظر
كلّ يُقـاد بسـائس مـا غُطيـت ... بالـدرع قامتـة ولا بمغافـر
هـذا دليـل الخيـل والرجـل الـتي ... قويت بلا خوف جميع الأعصر
مـن يقـوَ إن لم يـرضَ مالـك أمرهـم ... أن يدخل الساحات أو من يجسر

وفي سـنة ١٨٤٢ شرعوا في توسـيع القنطرة الزرقاء، وفي ذلك الوقت كنت سـاكنًا في بيـت أمام هذه القنطرة، فكنت أشـاهد الأشـغال [٨١/ظ] الشـاقة المتواليـة من دق أعمدة الخشـب في الماء، ثم تنشـيفه، وقد تمت هـذه القنطرة، وسـبب هـذا التحسـين أن هـذه القنطـرة أمام القصـر المبـني لشـاهزاده الأميرة الكبـيرة ماريـه نيقولاونه، الذي هو أيضًا من مآثر هـذا القيصر، فأراد القيصر توسـيع القنطرة؛ لتتسـع سـاحة القصر، ولذلك هدموا بعض بيـوت حائله بين القصر وبين كنيسة إسحاق، وبالجملة فمآثر هذا القيصر لا تحصى، ومحاسن تدبيره لا تستقصى.